الانحراف الفكري بين الفكر الإسلامي والفكر المسيحي الغربي: دراسة مقارنة في ضوء مقاصد الشريعة

أ. م. د. عبدالله همّت عبدالله

أستاذ مشارك في الفكر والحضارة الإسلامية، الجامعة الإسلامية بمينيسوتا، الولايات المتحدة الأمريكية.

أستاذ الاقتصاد والقانون الدولي، الجامعة الإسلامية بغزة، فلسطين.

رئيس اللجنة العلمية لتطوير المناهج العلمية في كلية الدراسات الإسلامية، الجامعة الإسلامية بمينيسوتا، الولايات المتحدة الأمريكية.

باحث دكتوراه في الدراسات الإسلامية (تخصص: الفكر والحضارة الإسلامية) بالجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا.

حاصل على درجة الدكتوراه المهنية في القيادة والحوكمة المؤسسية(DBA) ، ويتمتع بخبرة أكاديمية ومهنية تتجاوز 17 سنة في التعليم العالي والتعليم الثانوي، إضافة إلى إشرافه على بحوث علمية ونشره المنتظم في مجلات محكّمة دولية.

الاهتمامات البحثية :الفكر والحضارة الإسلامية - دراسات الأديان والمذاهب -مقاصد الشريعة والتجديد والاجتهاد - الهوية الإسلامية والأمن الفكري

ملخص البحث :

تهدف هذه الدراسة إلى استكشاف مفهوم **الانحراف الفكري** وعلاجه من منظورين مختلفين: المنظور الإسلامي المستند إلى مقاصد الشريعة، والمنظور المسيحي الغربي عبر تطوره التاريخي والفكري. تتناول الدراسة **الأصول الشرعية** لفكرة الانحراف الفكري في الإسلام من القرآن والسنة النبوية، مبيّنةً كيف شكّلت *مقاصد الشريعة* إطارًا لضبط التفكير وحماية العقل والدين من الزيغ. وفي المقابل تستعرض فهم الانحراف الفكري في الفكر المسيحي الغربي عبر مراحل متعددة، من كتابات آباء الكنيسة أمثال أوغسطين وتوما الإكويني، مرورًا بحركة الإصلاح الديني لدى مارتن لوثر، وصولًا إلى تحديات الحداثة والعصر المعاصر كما عالجها مفكّرون مثل ديكارت وبول تيليش وهانز كونغ. وتعقد الدراسة **مقارنة منهجية** بين أساليب معالجة الانحراف الفكري في الفكرتين الإسلامية والمسيحية، مظهرةً نقاط الالتقاء كالتحذير من الغلوّ والتطرّف، ونقاط الافتراق كاختلاف المرجعية (الوحي الإسلامي مقابل الكنسية أو العقلانية الغربية). وتبرز الدراسة أهمية *مقاصد الشريعة* كمنهج إسلامي لضبط الفكر وضمان *الأمن الفكري*، مقابل أدوات المسيحية الغربية كالسلطة الكنسيّة سابقًا والعقل النقدي لاحقًا في تصحيح مسار الفكر. وفي الختام، تُقدّم توصيات عملية لمعالجة ظاهرة الانحراف الفكري في سياقاتنا الحديثة التي تتسم بتأثيرات كونية وتحولات فكرية عالمية، مؤكدةً على ضرورة الحوار بين الأديان وتفعيل وسطية الفكر لتحقيق **الأمن الفكري** للمجتمعات.

الكلمات المفتاحية : الانحراف الفكرى – الفكر الإسلامي – الفكر المسيحى

Intellectual deviation between Islamic thought and Western Christian thought: A comparative study in light of the objectives of Sharia

This study aims to explore the concept of intellectual deviation and its treatment from two different perspectives: the Islamic perspective based on the objectives of Islamic law, and the Western Christian perspective through its historical and intellectual development. The study examines the legal origins of the idea of intellectual deviation in Islam, based on the Qur'an and the Sunnah, demonstrating how the objectives of Islamic law formed a framework for controlling thought and protecting reason and religion from deviation. Conversely, it reviews Understanding intellectual deviation in Western Christian thought across multiple stages, from the writings of Church Fathers such as Augustine and Thomas Aquinas, through the Reformation of Martin Luther, to the challenges of modernity and the contemporary era as addressed by thinkers such as Descartes, Paul Tillich, and Hans Kung. The study complicates A systematic comparison of approaches to addressing intellectual deviation in Islamic and Christian thought, highlighting points of convergence, such as warning against extremism and fanaticism, and points of divergence, such as differences in authority (Islamic revelation versus the Church or Western rationalism). The study highlights the importance of the objectives of Sharia as an Islamic approach to controlling thought and ensuring Finally, practical recommendations are

presented for addressing the phenomenon of intellectual deviation in our modern contexts, characterized by global influences and global intellectual transformations, emphasizing the necessity of interfaith dialogue and the activation of moderation in thought to achieve intellectual security for societies.

Keywords: intellectual deviation - Islamic thought - Christian thought

المقدمة

يشهد العالم المعاصر تحولات فكرية عالمية وتداخلات ثقافية غير مسبوقة نتيجة التطور التكنولوجي والانفتاح الكوني. في خضمّ هذه **التأثيرات العالمية** تتصاعد تحديات ما يمكن تسميته بـ**الانحراف الفكري** –أي انحراف الأفكار عن مساراتها الصحيحة السويّة – سواء داخل المجتمعات الإسلامية أو في الإطار الفكري المسيحي الغربي. لقد أضحى موضوع الانحراف الفكري قضية محورية تمسّ الهوية الدينية والأمن الثقافي للأمم، إذ تبرز صور من التطرف والغلوّ وسوء الفهم الديني، أو على الجانب الآخر تفشّي الشكوك والإلحاد والتفسيرات المنحرفة عن أصول العقيدة. هذه الظاهرة ليست جديدة تمامًا؛ فقد واجهتها الأمم عبر التاريخ بصور مختلفة .**الفكر الإسلامي** تعامل مع الانحراف الفكري منذ فجر الإسلام – كما في ظهور الخوارج مثلًا – ووضع له ضوابط عبر نصوص الوحي واجتهادات العلماء. وكذلك **الفكر المسيحي الغربي** عرف مبكرًا تحديات الانحراف عن العقيدة الصحيحة فيما اصطلح على تسميته بالبدع أو الهرطقات(Heresies) ، وشهد صراعات عقائدية وإصلاحات كبرى لتصويب المسار الفكري.

تنبع أهمية هذه الدراسة من الحاجة إلى فهم مقارن وعميق لهذه الظاهرة، خاصةً أن العالم اليوم مترابط بشكل يجعل **الانحرافات الفكرية** ذات تأثير متبادل بين المجتمعات. فالتطرف الديني في بقعة ما قد يستدعي ردود فعل فكرية في بقعة أخرى، والأفكار المنحرفة تنتقل عبر الفضاء الإلكتروني بسرعة. عليه، يصبح من الضروري الاستفادة من تراث كلٍّ من الإسلام والمسيحية في التعامل مع الانحراف الفكري، لاستنباط حلول متوازنة تعزّز **الأمن الفكري** والفهم الصحيح.

السياق العلمي لهذه الدراسة هو **الدراسات المقارنة في الفكر الديني**؛ حيث نسعى لقراءة الظاهرة في إطارين مختلفين بهدف الإثراء المتبادل. وتجدر الإشارة إلى أن هذه الدراسة جديدة في طرحها المقارن،

مع الحرص على عدم التكرار مع أي بحوث سابقة للمؤلف. فهي تُميّز نفسها عن دراسة سابقة بعنوان *"الانحراف الفكري في عصر العولمة "*من خلال توسيع المنظور ليشمل المقارنة بين منهجين فكريين (الإسلامي والمسيحي الغربي)، واستعمال مصطلحات بديلة لمفهوم "العولمة" مثل **التأثيرات الكونية** و**التحولات الفكرية العالمية**.

في هذا الإطار، سنعرض مشكلة البحث وأهميته، ثم أهدافه وأسئلته التي سيجيب عنها، فالفرضيات المتوقع اختبارها، والمنهجية المتّبعة، ثم سنستعرض باختصار الأدبيات السابقة في كلا الجانبين الإسلامي والمسيحي، قبل الانتقال إلى تحليل المحاور الرئيسية الخمسة المقترحة. سنختم بتوصيات عملية و**خلاصة مركزة**، تتبعها قائمة بالمراجع التي استندت إليها الدراسة.

مشكلة البحث

تتمحور مشكلة البحث حول فهم ماهية **الانحراف الفكري** ومظاهره في كلٍّ من الفكر الإسلامي والفكر المسيحي الغربي، وسبل معالجته في ضوء الإطار القيمي والتشريعي الإسلامي (وخاصةً مقاصد الشريعة) مقارنةً بالمعالجات في الفكر المسيحي عبر تاريخه. ينبثق عن هذه المشكلة أسئلة فرعية عدّة: كيف ينشأ الانحراف الفكري داخل المنظومة الفكرية الدينية؟ ما العوامل التي تؤدي إليه في العصر الحديث حيث تتسارع *التحولات الفكرية العالمية*؟ وما أوجه التشابه والاختلاف بين التصورات الإسلامية والمسيحية الغربية في تعريف هذا الانحراف وتشخيصه وعلاجه؟

إن انعدام الفهم الصحيح للدين، وظهور تفسيريات متطرفة أو شاذة، يفضي إلى ظواهر خطيرة تهدد **الأمن الفكري والمجتمعي** .في السياق الإسلامي، يتمثل ذلك في الغلوّ في الدين أو التأويلات الباطلة التي تبرر العنف باسم الدين، أو في الانسلاخ عن ثوابت العقيدة تحت بريق الحداثة الزائفة. أما في السياق

المسيحي الغربي، فقد يتجلى الانحراف الفكري تاريخيًا في البدع المسيحية التي واجهتها الكنيسة، وفي العصر الحديث ربما في المذاهب المادية والإلحاد العملي وتآكل الإيمان لصالح نظرة عقلانية محضة.

وعليه فالمشكلة المركزية :**كيف عالج الفكر الإسلامي والفكر المسيحي الغربي قضية الانحراف الفكري عبر نصوصهما وتراثهما الفكري، وما الذي يمكن أن نستفيده معاصرًا من كلا التجربتين؟**

أهداف البحث

يسعى هذا البحث إلى تحقيق جملة من الأهداف العلمية والعملية، من أبرزها:

- **الفهم العميق للمفهوم** :توضيح مفهوم **الانحراف الفكري** وتأصيله لغويًا واصطلاحيًا في كل من الإسلام والمسيحية الغربية، وبيان تجلياته المختلفة (التطرف الديني، البدع، الهرطقات، الإلحاد، ...).
- **تأصيل إسلامي للمفهوم** :إبراز كيفية تناول القرآن الكريم والسنة النبوية لمسألة انحراف الفكر، واستنباط الأصول الشرعية لحفظ الفكر من الانحراف، لا سيما عبر *مقاصد الشريعة الإسلامية* التي جعلت من **حفظ العقل والدين** مقصدين أساسيين.
- **استكشاف مسيحي تاريخي** :تتبع مسار التعامل مع الانحراف الفكري في الفكر المسيحي الغربي، من العصر القديم (آباء الكنيسة ومجابهة البدع) مرورًا بالقرون الوسطى (الفلسفة المدرسية ومفهوم الهرطقة) فالإصلاح الديني (تصويب الانحراف الكنسي) وصولًا إلى العصر الحديث (تحديات الحداثة والعلمانية).
- **المقارنة والتحليل** :عقد **مقارنة منهجية** بين مناهج المعالجة في الإسلام والمسيحية، وذلك لتمييز أوجه التشابه (مثل رفض الغلوّ والدعوة للوسطية) والاختلاف (مثل اختلاف مصادر التشريع أو السلطة المعرفية). الهدف هنا الوقوف على عوامل القوة أو القصور في كل منهج.

- **توظيف التراث في الواقع** :استنباط **آليات معالجة معاصرة** لظاهرة الانحراف الفكري تستلهم من التجربتين الإسلامية والمسيحية، بما يعزّز *الأمن الفكري* في مجتمعاتنا اليوم. ويتضمن ذلك اقتراح توصيات عملية للتعليم والخطاب الديني والحوار الحضاري للحد من الانحرافات الفكرية.
- **الإسهام العلمي** :إثراء المكتبة الأكاديمية العربية بدراسة مقارنة جديدة في موضوع الانحراف الفكري، تسدّ ثغرة في الدراسات البينية (Interfaith studies) وتفتح آفاقًا لمزيد من البحث والتعاون الفكري بين أتباع الديانات.

أسئلة البحث

للإحاطة بجوانب الموضوع كافة، يطرح البحث الأسئلة الرئيسية التالية، التي سيسعى للإجابة عنها عبر فصوله المختلفة:

1. **ما المقصود بالانحراف الفكري اصطلاحًا في كل من الفكر الإسلامي والفكر المسيحي الغربي؟** وما أبرز مظاهره التاريخية والمعاصرة في كلا الجانبين؟
2. **ما النصوص القرآنية والأحاديث النبوية** الدالة على خطورة الانحراف الفكري وضرورة محاربته؟ وكيف فسّر علماء الإسلام عبر العصور هذه النصوص ووظفوها في مواجهة انحراف الفكر؟
3. **ما دور مقاصد الشريعة الإسلامية** في ضبط الفكر وتوجيهه؟ وكيف يمكن لهذا الإطار المقاصدي أن يعالج الانحراف الفكري داخل المجتمعات الإسلامية؟

4. **كيف نظر المفكرون المسيحيون الغربيون** –في التاريخ القديم والوسيط والحديث – إلى مسألة الانحراف الفكري ضمن سياقهم (كالبدع والهرطقات وتحديات الإيمان والعقل)؟ وما أهم ما قدموه من معالجات أو ردود؟
5. **ما أوجه الاتفاق والافتراق** بين المنهج الإسلامي والمنهج المسيحي الغربي في التعامل مع الانحراف الفكري؟ وكيف أثّر السياق الحضاري والمرجعي لكل طرف في تشكيل منهجه الخاص؟
6. **في ظل التحولات الفكرية العالمية المعاصرة، ما السبل العملية الكفيلة بالوقاية من الانحراف الفكري أو تصحيحه** لدى الأفراد والجماعات؟ وكيف يمكن للاستفادة المتبادلة بين التجربتين الإسلامية والمسيحية أن تسهم في تعزيز الاعتدال الفكري عالميًا؟

هذه الأسئلة سيوجّه مجموعها مسار البحث، بحيث يخصص لكل محور من محاور الدراسة معالجة تساهم في الإجابة عنها بصورة شاملة ومتكاملة.

فرضيات البحث

ينطلق البحث من فرضيات مبدئية **يُفترض** صحتها أو بعضها، ليتم تمحيصها عبر الدراسة المقارنة والتحليل الاستقرائي للنصوص. من أهم هذه الفرضيات:

1. **وحدة الظاهرة واختلاف السياقات** :يفترض البحث أن *الانحراف الفكري* كظاهرة موجودة في جميع البيئات الدينية، لكنّ تعريفها الدقيق وأسبابها المباشرة وسبل التعامل معها تختلف باختلاف السياق) إسلامي .vs مسيحي غربي.

2. **دور المرجعية العليا** :يُفترض أن وجود مرجعية عليا واضحة (كالنص القرآني والسنة الصحيحة في الإسلام، أو الكنيسة والعقيدة المستقرة في المسيحية التقليدية) يساهم في الحد من الانحراف الفكري. وكلما ضعفت المرجعية أو غاب الفهم الصحيح لها، زاد انتشار الانحراف.
3. **مقاصد الشريعة كعامل وقائي** :يفترض البحث أن تأطير الفكر ضمن *مقاصد الشريعة الإسلامية* (وخاصة حفظ الدين والعقل) يوفّر آلية وقائية وعلاجية فعالة ضد التطرف الفكري في العالم الإسلامي، وربما يمكن الاستفادة منها عالميًا.
4. **التطرف .vs الجمود في كلتا الديانتين** :من الفرضيات أن كلاً من الإسلام والمسيحية واجه نوعين من الانحراف: إفراطٌ (غلوّ وتطرّف وتشدد) وتفريطٌ (تحريف وجمود أو تسيّب في الثوابت). ويُتوقَّع أن يكون المنهج القويم وسطًا بين الطرفين في كليهما (الوسطية الإسلامية مقابل الاعتدال المسيحي).
5. **التأثيرات الحديثة** :يفترض أن التحولات الفكرية الحديثة (العلمانية، الحداثة، العولمة الإعلامية) كان لها أثر في خلق أنماط جديدة من الانحراف الفكري أو إعادة تشكيل القديمة، مما اضطر المفكرين المسلمين والمسيحيين المعاصرين لإيجاد ردود ملائمة (مثل دعوات تجديد الخطاب الديني في الإسلام، أو الحركة المسكونية وتجديد اللاهوت في المسيحية).
6. **إمكانية التكامل في المعالجات** :يفترض البحث ضمنيًّا أنه بالرغم من تباين المعتقدات، قد توجد مساحات *إنسانية مشتركة* في معالجة الانحراف الفكري (مثل الدعوة لاحترام العقل، وتحقيق العدل، ونبذ الكراهية)، مما يسمح بتكامل الجهود الفكرية بين الإسلام والمسيحية لمواجهة التطرف والإلحاد معًا.

سيتم خلال البحث اختبار صحة هذه الفرضيات أو تعديلها بناءً على ما يتكشف من معطيات ونقاشات في المحاور القادمة.

منهجية البحث

تعتمد هذه الدراسة منهجية علمية **نوعية (Qualitative)** ذات طابع **استقرائي واستنباطي** في آن واحد، مع توظيف منهج **المقارنة** بصورة رئيسية. وفيما يلي توضيح لأبرز أدوات المنهج المستخدمة:

- **المنهج التحليلي الاستقرائي** :حيث يتم جمع النصوص الدينية (آيات قرآنية، أحاديث نبوية، نصوص آباء الكنيسة ...) ذات الصلة بموضوع الانحراف الفكري، إضافة إلى أقوال العلماء والمفكرين من كلا التقليدين. ثم يجري تحليل هذه النصوص والاستشهادات لفهم دلالاتها واستنباط المفاهيم والرؤى المتعلقة بالانحراف الفكري وأسبابه وعلاجه. سيساعد هذا المنهج في **تكوين صورة شاملة** من المصادر الأصلية نفسها قبل الانطلاق إلى أي تعميمات نظرية.
- **المنهج الاستنباطي (الاستدلالي)** :بالاستفادة من معطيات التحليل الاستقرائي، يتم استنباط مبادئ عامة أو نظريات تفسيرية حول الظاهرة. على سبيل المثال، استنباط أن غياب مقصد حفظ العقل يؤدي إلى تطرف، أو أن الفصل بين العقل والإيمان أدى لانحرافات في الفكر الغربي... إلخ. هذا المنهج سيُستخدم خصوصًا عند مناقشة *مقاصد الشريعة* كإطار نظري وعند صياغة المقارنات العامة والاستنتاجات.
- **منهج المقارنة** :**(Comparative Approach)** وهو جوهر هذه الدراسة، إذ سيتم **الموازنة بين معطيات المنظورين** الإسلامي والمسيحي. ستعقد المقارنة في كل محور: مثل مقارنة نظرة النص القرآني للانحراف بنظرة الكتابات الكنسية الأولى، أو مقارنة وسائل الإصلاح الفكري بين علماء المسلمين ومفكري الإصلاح البروتستانتي. المنهج المقارن هنا تاريخي وتحليلي معًا، يُبرز السياقات الخاصة بكل جانب ثم يقارن النتائج.

- **المنهج التاريخي** :وذلك بتتبّع تطور فكرة الانحراف الفكري عبر المراحل التاريخية. في الجانب الإسلامي مثلاً ننتقل من الخوارج في صدر الإسلام إلى تحديات العصر الحديث، وفي المسيحية من المجامع الكنسية في القرون الأولى إلى حركة التنوير واللاهوت الحديث. هذا السياق التاريخي ضروري لفهم كيفية تشكّل مواقف الفكرين عبر الزمن.
- **الدراسة المكتبية (Desk Research)**: بجمع وتحليل ما كُتب في المصادر والمراجع الأساسية والثانوية ذات العلاقة بالموضوع، عربيًا وأجنبيًا. ستمكننا هذه الدراسة المكتبية من بناء *مراجعة أدبيات* قوية، وتوفير المحتوى العلمي الموثوق لدعم التحليلات والاستنتاجات.
- **منهج نقدي تقويمي** :إذ لن يقتصر الأمر على وصف آراء الإسلام والمسيحية، بل سيتم نقدها وتقويمها عند اللزوم؛ مثلًا تقييم نجاح أو فشل بعض استجابات العلماء لمحاربة الانحراف الفكري، أو نقد آثار محاكم التفتيش في أوروبا كمثال على معالجة خاطئة للانحراف الفكري. هذا النقد هدفه استخلاص العبر والدروس.

باستخدام هذه المنهجيات المتكاملة، تأمل الدراسة في تقديم طرح موضوعي وعميق. كما تضمن المنهجية **التوازن** بعدم الانحياز: فالمصادر الإسلامية والمسيحية كلٌ ستُعرض بأمانة علمية، والمقارنة ستكون نزيهة لإظهار الحقيقة العلمية بعيدًا عن التعصب.

حدود الدراسة ومنهجها

حدود الدراسة (Scope) تشير إلى الإطار الذي تغطيه الدراسة من حيث الموضوع والمصادر والمعالجة،

وذلك على النحو التالي:

- **من حيث الموضوع** :تركّز الدراسة على *الانحراف الفكري في المجال الديني* ضمن الإسلام والمسيحية الغربية فقط. وعليه فهي لا تتطرق إلى انحرافات فكرية في سياقات أخرى كالأيديولوجيات السياسية البحتة أو الديانات الأخرى. كذلك فإن التركيز في الجانب المسيحي هو على **الفكر المسيحي الغربي** (الكاثوليكي والبروتستانتي بشكل أساسي ضمن أوروبا وأمريكا الشمالية)، دون التعمق في الفكر المسيحي المشرقي (الأرثوذكسي الشرقي) إلا عرضًا عند الضرورة.
- **من حيث الفترة الزمنية** :يغطي البحث **حقبة واسعة تاريخيًا** لضمان شمولية النظرة؛ فهو يمتد من العصر النبوي وعصر السلف في الإسلام مرورًا بالعصور الإسلامية الذهبية ثم الحقبة الحديثة، ويوازيه في المسيحية من عهد آباء الكنيسة الأوائل (القرون الأولى بعد المسيح) مرورًا بالعصور الوسطى (المدرسية) ثم عصر النهضة والإصلاح وصولًا إلى العصر الحديث. هذا الامتداد الزمني العريض قد يقتضي منا انتقاء أبرز المحطات والأمثلة دون استقصاء كل التفصيلات التاريخية.
- **من حيث المصادر** :تلتزم الدراسة بالاعتماد على مصادر **موثوقة ومعتمدة** في كلا الجانبين. فعلى الجانب الإسلامي تشمل المصادر الأساسية القرآن الكريم والسنة الصحيحة (مع تخريج الأحاديث وعزوها)، وكتب التراث المعتمدة (كتب التفسير، وشروح الحديث، وكتب العقيدة والفقه والأصول خاصة ما يتعلق بالبدع ومقاصد الشريعة). وعلى الجانب المسيحي تشمل الكتاب المقدس عند الحاجة، وقرارات المجامع المسكونية، وكتابات آباء الكنيسة (مثل أوغسطينوس)، والأعمال اللاهوتية الكبرى (كتابات توما الأكويني وغيرها)، وكذلك كتابات المصلحين (لوثر وكالفن...) واللاهوتيين المعاصرين. أيضًا تمتد المصادر إلى البحوث

والدراسات الحديثة (كتب ومقالات أكاديمية) التي تناولت التطرف الديني أو العلاقة بين العقل والإيمان...إلخ.

- **من حيث اللغة** :غالبية المراجع الإسلامية باللغة العربية (أصولًا أو ترجمات)، وبالنسبة للمراجع المسيحية الغربية فتم استخدام مصادر مترجمة إلى العربية قدر الإمكان، أو اللغة الإنجليزية عند الاضطرار، مع ترجمة المعاني إلى العربية في متن الدراسة.
- **من حيث المنهج** :اقتصرت أدوات البحث على التحليل والمقارنة كما سلف، ضمن **دراسة مكتبية نظرية** .لذا فالبحث لا يشمل جمع بيانات ميدانية أو إجراء استبيانات مثلاً، لأن طبيعته نوعية نظرية وليست كمية إحصائية.
- **حدود المصطلح** :تم تحديد المقصود بـ"الانحراف الفكري" في هذا البحث بشكل دقيق ليشمل الانحراف في فهم أصول الدين أو تطبيقاته الفكرية، سواء نتج ذلك عن غلو وتشدد أو عن تأويل باطل أو عن تأثر بأفكار دخيلة. بالتالي قد لا يتناول البحث مثلاً الانحراف الأخلاقي (إلا بقدر ارتباطه بالأفكار) أو الانحراف الفني/الثقافي إلا من زاوية الفكر والقيم.

إدراك هذه الحدود مهم للحكم على نتائج الدراسة وعدم تحميلها أكثر مما تحتمل؛ فهي دراسة مقارنة نظرية ضمن النطاقات المذكورة، وتحاول رغم اتساعها أن تبقى مركزة على **جوهر المقارنة الفكرية الدينية** دون تشعب زائد.

أما عن **منهج الدراسة** فقد فصلناه أعلاه، ونؤكد هنا الالتزام بالموضوعية في تطبيق المنهج؛ فنحن نعقد المقارنة لا بقصد المفاضلة الإيمانية، بل بقصد **الفهم والتعلم المتبادل** .المنهج يقضي أيضًا بتوخي الحذر في التعامل مع الأحكام التقويمية: فما يعتبر "انحرافًا فكريًا" قد يكون وجهة نظر عند آخرين. لذا سيُعرَض المصطلح دائمًا ضمن سياقه الثقافي والديني؛ فمثلاً نستخدم تعبير "بدعة" و"هرطقة" من منظور الفكر

المسيحي نفسه لما خالف عقيدته الرسمية، كما نستخدم "بدعة" و"فتنة" إسلاميًا لما خرج عن إجماع الشرع. هذا التفريق المنهجي يساعد على عدم الخلط وإطلاق أحكام خارج السياق.

مراجعة الأدبيات والدراسات السابقة

لتأسيس هذه الدراسة على أرضية علمية صلبة، من الضروري استعراض موجز لـ**أبرز الأدبيات** التي تناولت موضوع الانحراف الفكري أو جوانب متصلة به، سواء في التراث الإسلامي أو المسيحي الغربي أو الدراسات الحديثة المقارنة. ويلاحظ أن تناول *الانحراف الفكري* تم غالبًا في سياق أعم أو تحت مسميات مختلفة عبر التاريخ:

- **في الفكر الإسلامي** :يمكن تتبع معالجة الانحراف الفكري ضمن كتابات عقدية وفقهية وأصولية متعددة. فعلى سبيل المثال، اهتم **علماء العقيدة والملل والنحل** برصد الفرق المنحرفة وأفكارها؛ فنجد الإمام **الشهرستاني** في كتابه *الملل والنحل* يستعرض الفرق الإسلامية وغير الإسلامية وآرائها المنحرفة بحسب منظور أهل السنة والجماعة. وكتب **ابن حزم** و**البغدادي**)كتاب *الفرق بين الفرق* (و**ابن تيمية**)كتاب *الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان* مثلًا) تتعرض للانحرافات في فهم الدين كالبدع والزندقة. كذلك *الإمام الغزالي* في *فضائح الباطنية* وفي *المنقذ من الضلال* تناول ما رآه انحرافات عند الباطنية والفلاسفة، محاولًا بيان الطريق القويم. وفي مجال الفقه وأصوله، يأتي **الإمام الشاطبي** في كتاب *الاعتصام* بوصف دقيق لمفهوم البدعة وأنواعها وخطورتها على الدين، مما يشكل معالجة أصيلة لموضوع الانحراف الفكري تحت مسمى البدع. أما من منظور **مقاصد الشريعة**، فكتابات العلماء كـ**ابن القيم**)خاصة في *إعلام الموقعين* وغيره) و**ابن تيمية** تشير إلى أهمية اعتبار مقصود الشرع وروحه حتى لا ينحرف الفقيه إلى حرفية جوفاء أو تشدد غالٍ. في العصر الحديث، برزت دراسات حول **الأمن الفكري**

والتطرف مثل كتابات **يوسف القرضاوي**)ككتابه *الصحوة الإسلامية بين الجمود والتطرف*(، و**سعيد حوى**)*آفات على الطريق*(، و**محمد الغزالي** الذي انتقد التشدد في كتبه. وأيضًا دراسات أكاديمية معاصرة حاولت تأصيل مفهوم الانحراف الفكري ضمن إطار *الغزو الفكري والعولمة*، إلا أن دراستنا تحاول تجنب تكرار ما كُتب حول "العولمة" تحديدًا، والتوجه بدلًا من ذلك إلى مقارنة بين الحضارتين.

- **في الفكر المسيحي الغربي** :يمكن رصد مفهوم الانحراف الفكري فيما اصطلح على تسميته تاريخيًا **بالبدع والهرطقات** .الأدبيات المسيحية المبكرة أغلبها تناول "الهرطقة" (أي خرق العقيدة القويمة) بشكل سجالي أو تقرير إيمان. على سبيل المثال، كتابات **القديس إيريناوس** في القرن الثاني الميلادي (مثل *ضد الهرطقات* *Adversus Haereses*) مثّلت محاولة مبكرة لتفنيد الأفكار المنحرفة عن الإيمان المسيحي القويم. ثم أتى **أوغسطينوس (القديس أوغسطين)** في القرن الخامس ليواجه بدعًا كالدوناتية والمانوية، وخلف ذخيرة فكرية مثل كتاب *اعترافاته* ورسائله التي تناولت دور نعمة الله في مواجهة ضلال الفكر البشري، كما كتب مقولة مشهورة مفادها *"نحن نشكر الهراطقة والمبتدعين، إذ لولاهم لما تعمّقنا في فهم عقائدنا* – "إشارة إلى أن ظهور الانحرافات دفع الكنيسة لشرح الإيمان أكثر. في العصور الوسطى، جاء **توما الأكويني** في القرن الثالث عشر باعتباره رائد الفلسفة المدرسية الكاثوليكية، وتناول قضايا الإيمان والعقل مطوّلًا في *الخلاصة اللاهوتية*(*Summa Theologica*) ، حيث عرّف الهرطقة بأنها *"انحراف عن إيمانٍ مُسلَّم، لدى من يقرّون بظاهره، ولكنهم يفسدون معناه"*، وقد شدّد على خطورة البدع حتى أنه برّر عقوبة المرتد أو المبتدع بحزم آنذاك، نظرًا لتهديده وحدة المجتمع الديني. أما في القرن السادس عشر، فقد قام **مارتن لوثر** بطرح أطروحاته الـ95 الشهيرة نقدًا لما اعتبره *انحرافات الكنيسة الكاثوليكية* (مثل صكوك الغفران)، وبذلك أطلق حركة **الإصلاح**

البروتستانتي التي صححت مسار الفكر الديني المسيحي من وجهة نظره وأتباعه، ما أدى إلى تنوع مسيحي (كاثوليك/بروتستانت) يمكن اعتباره نتيجة اختلاف تعريف الانحراف والصواب. لاحقًا في العصر الحديث ومع صعود **العقلانية والحداثة**، ظهر تحدٍّ من نوع جديد: فلسفات *تشكيكية أو إلحادية* قد يرى فيها المؤمنون انحرافًا فكريًا عن الإيمان. فكتب **رينيه ديكارت** (القرن 17) مثلًا "*مقال في المنهج* "أعلت من شأن الشك المنهجي والعقل، فاعتُبرت بداية لفكر عقلاني مجرد قد يبعد عن بساطة الإيمان التقليدي. لكن بالمقابل، حاول اللاهوتيون **التوفيق بين الإيمان والعقل**؛ فنجد **بليز باسكال** يحذّر من إقصاء القلب، ونجد الكنيسة الكاثوليكية في المجمع الفاتيكاني الأول (1870م) تؤكد إمكانية معرفة الله بالعقل. وفي القرن العشرين، ساهم لاهوتيون مثل **بول تيليش** في تجديد فهم الإيمان باعتباره "*همًّا مطلقًا* "لدى الإنسان، محذرًا من *الهموم المطلقة الزائفة* التي تشغل الناس عن الإيمان الحقيقي. كذلك دعا **هانز كونغ** إلى *تحديث اللاهوت المسيحي وتنقية الفكر الديني من التعصب*، ووصل به الأمر إلى نقد مؤسسة الكنيسة نفسها، مما جعله يواجه اتهامات بالزندقة داخل الكنيسة الكاثوليكية. وقد عبّر هانز كونغ عن ضيقه من التعصب الديني قائلاً" *يا إلهي هل سنتخلص يوماً ما من سرطان التعصب الديني ومحاكم التفتيش؟*"، مشيرًا إلى ضرورة المرور بروح التنوير لحماية جوهر الدين من التحجّر.

- **دراسات معاصرة مقارنة** :على صعيد الدراسات الحديثة، هناك جهود محدودة تناولت التطرف الديني في إطار مقارن بين الأديان. بعضها صدر عن مراكز بحثية أو جامعات غربية تناولت *العنف الديني* مثلًا عند المسيحيين والمسلمين بالمقارنة. ولكن في سياقنا العربي، معظم الدراسات ركزت على البيئة الإسلامية وحدها. لذا تأتي أهمية هذه الدراسة الحالية كونها تحاول الربط والمقارنة، بالاستفادة من دراسات جزئية سابقة: فمثلًا هناك بحوث إسلامية حول **الأمن الفكري** (كبحث "الأمن الفكري في ضوء مقاصد الشريعة") تُبرز دور الشريعة في صيانة الفكر من

التكفير والانحراف. وكذلك بعض الكتابات العربية عن الفكر الغربي التي تطرقت لانحرافات العقيدة المسيحية أو لنقد الحداثة الغربية من منظور إسلامي.

وخلاصة القول في مراجعة الأدبيات: لدينا تراث ثري في الجانبين عالج مظاهر الانحراف الفكري بطرق مختلفة. هذا التراث سيمدّنا بالمواد الخام للتحليل. لكن يبقى *الجمع في دراسة واحدة بين هذين الخطين* قليل الورود، مما يضع على عاتقنا مهمة الربط والمقارنة بعناية، وعدم الاكتفاء بعرض كل جانب بمعزل عن الآخر.

بعد هذا التمهيد في الأدبيات، نمهد الآن للولوج في صلب الدراسة عبر محاورها الأساسية الخمسة التي تغطي: التأصيل القرآني والنبوي للمفهوم، دور مقاصد الشريعة، مظاهر الانحراف في الفكر المسيحي الغربي، المقارنة بين المعالجات، ثم التطبيقات المعاصرة.

المحور الأول: تأصيل الانحراف الفكري من منظور قرآني وحديثي

في هذا المحور نسعى إلى **تأصيل مفهوم الانحراف الفكري** من منظور إسلامي، بالرجوع إلى **القرآن الكريم والسنة النبوية** لفهم كيف عولجت مسألة خروج الفكر عن الجادة أو انحرافه عن الحق. إن المنهج الإسلامي في ضبط أي مفهوم يبدأ دائمًا بالوحيين، لذا نعرض أبرز الآيات والأحاديث في هذا الصدد، مع شروح العلماء لها عبر العصور.

1.في القرآن الكريم

وردت في القرآن إشارات متعددة إلى *الانحراف عن الحق* فكريًا أو عقائديًا، بعبارات متنوعة مثل "الزيغ" و"الضلال" و"اتباع السبل الملتوية" وغيرها. من أهم الآيات التي يمكن اعتبارها **مرتكزًا قرآنيًا** في هذا الباب:

- قوله تعالى :﴿**وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ۚ**﴾ (سورة الأنعام 6:153). هذه الآية الكريمة ترسم منهجًا عامًا: ثمة صراط مستقيم واحد يمثل **الحق** الذي أراده الله، يقابله سبل متعددة منحرفة تؤدي بمن يسلكها إلى التفرّق والبعد عن سبيل الله. علّق المفسرون على هذه الآية بأن "الصراط المستقيم" يشمل التوحيد واتباع الشريعة الصحيحة، بينما "السبل" هي طرق البدع والضلالات. وورد عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال في شرحها: خطّ لنا رسولُ الله ﷺ خطًا مستقيمًا وقال هذا سبيل الله، ثم خطّ خطوطًا عن يمينه وشماله وقال :*هذه السبل، على كل سبيل منها شيطان يدعو إليه* –ثم قرأ الآية. فالنص يبيّن بجلاء أن **الأصل في الدين وجود طريق قويم واحد**، والانحراف عنه هو اتباع طرق الضلال مهما تشعّبت.

- قوله تعالى :﴿**هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ... وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ...** ﴾ (سورة آل عمران 3:7). هذه الآية تشير إلى صنف ممن في قلوبهم **زيغ (ميل عن الحق)** حيث يستغلون المتشابه من النصوص لإثارة الفتنة وابتغاء التأويل المنحرف. وقد اعتبر العلماء أن **اتباع المتشابهات** وترك المحكمات منهج أهل الانحراف الفكري؛ لأنهم يتعمدون الأخذ بما يوافق أهواءهم من نصوص غير واضحة الدلالة، متجاوزين النصوص المحكمة البيّنة التي يجب أن ترد إليها المتشابهات. الإمام الطبري وغيره يذكرون أن هذه الآية نزلت في أهل الضلال من النصارى أو المبتدعة، لكنها عامة في كل من يحرّف الكلم عن مواضعه طلبًا للفتنة. فنستفيد أن القرآن نبّه مبكرًا على **أساس الانحراف الفكري** :ألا وهو سوء منهجية التعامل مع النص؛ فيظهر الانحراف إما باتباع الهوى، أو بتعمّد ليّ أعناق النصوص بعيدًا عن قصدها الصحيح.
- قوله تعالى مخاطبًا أهل الكتاب :﴿**قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ**﴾ (سورة النساء 4:171) وقوله أيضًا :﴿**قَدْ ضَلُّوا مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ**﴾ (المائدة 5:77). هاتان الآيتان **تحذران من الغلوّ في الدين**، والغلوّ هو مجاوزة الحد المشروع سواء في الاعتقاد أو العمل. فرغم أنه خطاب لأهل الكتاب (وقد فُسِّر الغلو هنا بإطراء عيسى عليه السلام أو الأحبار والرهبان)، إلا أن العبرة بعموم اللفظ: فالغلو في الدين سبب رئيسي للانحراف الفكري. لذا تبنّى علماء الإسلام هذه القاعدة – النهي عن الغلو – كميزان يوزَن به أي دعوى دينية: فإن جاوزت حدود النص أو مقاصد الشارع اعتُبرت انحرافًا.
- قوله تعالى :﴿**فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ**﴾ (يونس 10:32). وهي قاعدة قرآنية واضحة: أي فكر لا يوافق الحق المنزل من الله فهو ضلال. وبالتالي ففكرة *الانحراف الفكري* حاضرة هنا

ضمنًا، إذ تقسم الوجود الفكري إلى حق مقابل ضلال، ولا منطقة وسطى بينهما في الأمور الاعتقادية والقيمية الأساسية.

- بالإضافة إلى آيات أخرى تتضمن معاني الضلال والانشقاق عن وحدة الجماعة، مثل :﴿**وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا...**﴾)آل عمران 3:105(، ﴿**إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ**﴾ (الأنعام 6:159). فالتفرق في الدين غالبًا ناشئ عن انحراف فكري لدى إحدى الفرق عن الأصل الصحيح مما يؤدي للاختلاف والتنازع. ولهذا نجد تأكيد القرآن على الاعتصام بحبل الله جميعًا وعدم التفرق (آل عمران 3:103).

من هذا العرض الموجز يتبين أن *النص القرآني* أرسى مبادئ **الوحدة الفكرية الصحيحة** على الصراط المستقيم، وحذّر من علل الانحراف كالغلو واتباع المتشابهات والأهواء. وهذه الأسس القرآنية ستكون مرتكزًا لبناء الفكر الإسلامي لاحقًا في مواجهة الانحرافات الفكرية عبر التاريخ.

2.في السنة النبوية

زخرت أحاديث النبي محمد ﷺ بالتنبيه على مخاطر الانحراف عن سنّته ومنهجه في فهم الدين، وجاءت نصوص كثيرة تصلح أن تكون **قواعد نبوية** لضبط الفكر والمنهج. من أبرزها:

- حديث العرباض بن سارية رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال ...» *:وعليكم بسُنَّتي وسنَّة الخلفاء الراشدين المهديين، تمسَّكوا بها وعضُّوا عليها بالنواجذ، وإيّاكم ومُحدثاتِ الأمور؛ فإن كلَّ مُحدثةٍ بدعة، وكل بدعةٍ ضلالة* «(رواه أبو داود والترمذي وحسَّنه). هذا الحديث جامع في **الوصية باتباع السنة والابتعاد عن البدع**، حيث جعل كل *أمر مُحدث* في الدين (أي مُخالف لما جاء به النبي ﷺ) هو *بدعة وضلالة* .وهذا تعبير آخر عن الانحراف الفكري: فالبدعة في الدين انحراف

عن الصراط المستقيم بزيادة أو نقصان. وقد استنبط العلماء من هذا الحديث أهمية *الاتباع مقابل الابتداع* كأساس لضبط الفكر الديني. يقول الإمام الشاطبي معلّقًا إن النبي ﷺ جعل البدعة مقابلة للسنة، والضلالة مقابلة للهدي، فمن ابتدع فكرة أو ممارسة ليس لها أصل صحيح فقد انحرف عن الهدي القويم. كذلك في قول النبي "كل بدعة ضلالة" تأكيد لاستحالة أن يكون الانحراف المبتدَع خيرًا، بل هو شر محض ولو حسنه أصحابه.

- ما رُوي في وصف افتراق الأمة» :*افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة... وستفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة، كلها في النار إلا واحدة* «(حديث مشهور جاء بعدة طرق في السنن وغيرها وإن اختلف العلماء في صحته، لكن معناه استنبط منه أهل العلم فائدة). والمقصود أن **الافتراق الفكري والعقدي** واقع في الأمة الإسلامية كما وقع في الأمم قبلها، وأن الفرق الناجية واحدة باتباعها الحق الثابت (وقد فسّرها بعض الروايات بأنها الجماعة أو من كان على مثل ما عليه النبي وأصحابه). هذا الحديث – رغم النقاش حول سنده – استخدمه العلماء للتحذير من *مزالق الانحراف الفكري* المؤدي لتفرق الأمة وظهور الفرق الضالة. ويُفهم منه ضمناً أن الحق واحد والباطل متعدد، تمامًا كما دلّ القرآن.
- حديث الخوارج: جاءت أحاديث عدة يصف فيها النبي ﷺ جماعة الخوارج الذين سيظهرون في الأمة، ومنها قوله عنهم» :*يَحْقِرُ أحدُكم صلاتَه مع صلاتِهم، وصيامَه مع صيامِهم... يقرؤون القرآن لا يُجاوز حناجرهم؛ يمرُقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية* «(رواه مسلم). هذا الوصف النبوي يقدم لنا مثالًا تاريخيًا مبكرًا على **الانحراف الفكري المتستر بالتدين الشكلي؛** فهؤلاء الخوارج كانوا في الظاهر أهل صلاة وعبادة وقراءة قرآن، لكن فهمهم السقيم للدين أخرجهم عن روح الإسلام حتى شبّههم ﷺ بالسهم الذي يخرج سريعًا من الجسد دون أن يبقى فيه شيء – أي خرجوا من الدين بالكلية رغم مظهرهم. وفي حديث آخر قال» :*سيخرج قوم*

في آخر الزمان حدثاء الأسنان سفهاء الأحلام يقولون من خير قول البرية، يمرقون من الإسلام «...إلخ. هذه الروايات وغيرها جعلت الصحابة والتابعين ومن بعدهم على وعي كبير بخطر الغلو والتطرف الفكري الذي يمثله الخوارج ومن شاكلهم. وبالفعل عندما ظهرت الفتن فِي زمن عليّ رضي الله عنه وقامت فرقة الخوارج بتكفير عليّ والتحكيم، واجههم الصحابة بتحذير النبي السابق. واشتهر عن الخليفة عليّ قوله في شعار الخوارج **"لا حكم إلا لله"** :**"كلمةُ حقٍ أريدَ بها باطل** – **"**أي أن الجملة في ظاهرها حق (فالحكم لله فعلاً) لكن إرادة قائلها باطلة لأنه استغلها لتكفير المسلمين والخروج على الجماعة. فهذه المقولة من عليّ أصبحت مثلاً على حال كثير من *أهل الانحراف الفكري* :يرفعون شعارات حق ولكن يوظفونها في غير محلها عن جهل أو هوى، فينحرفون.

- أحاديث أخرى في التحذير من **الغلو** جاءت واضحة، مثل قوله ﷺ» *إيَّاكم والغلوَّ في الدين، فإنما أهلك من كان قبلكم الغلوُّ في الدين* «(رواه النسائي وابن ماجه وصححه ابن حبان). الغلو في الدين يمثل تجاوز الحد المشروع في الفهم أو التطبيق، وهو بالضبط أحد تعريفات الانحراف الفكري. النبي ﷺ نسب هلاك الأمم السابقة إلى هذا السبب، فمن باب أولى أن تُحفَظ الأمة منه. ولذلك كان ﷺ يوجّه أصحابه دوماً إلى التيسير ونبذ التشدد المنفّر، وقال »*هلك المتنطعون* « (أي المتعمقون المتشددون). كل ذلك يصب في تحصين الفكر من الخروج عن وسطية الإسلام واعتداله.

إلى جانب هذه النصوص التأسيسية، نجد **سيرة النبي ﷺ وخلفائه** غنية بأمثلة التعامل مع بوادر الانحراف: كإنكار النبي على من أراد التبتل وترك الزواج أو صيام الدهر، قائلاً» :*من رغب عن سنتي فليس مني* – «لأن هذا انحراف فكري في فهم العبادة. وكذلك في عهد أبي بكر وعمر تم مواجهة المرتدين وأهل البدع كمسيلمة الكذاب والمتنبئين الكذبة.

3.أقوال علماء السلف والصحابة

استكمالاً للتأصيل، يجدر عرض بعض **أقوال السلف والعلماء** التي تمثل فهم الأمة لمسألة الانحراف الفكري عبر العصور الأولى:

- قول **عمر بن الخطاب** رضي الله عنه" *إن أخوف ما أخاف على هذه الأمة كل منافق عليم اللسان*"، وفي رواية "*مضلٍّ عليم اللسان* ."هذا يعبّر عن الحذر من الذين قد **يحرّفون الكلم ويلبسون الحق بالباطل** بلسان فصيح، وهو تحديد مبكر لخطر *الانحراف الفكري المقنَّع* . فالمنافق عليم اللسان أخطر من الجاهل، إذ يستطيع جذب الناس بفكره المنحرف المغلف بالعلم.
- **ابن عباس** رضي الله عنهما (حبر الأمة) كان يناظر الخوارج محاولًا ردّهم للحق، وقد أثر عنه في وصف أهل الأهواء (أصحاب الانحرافات): "لا تجالسوا أهل الأهواء فإن مجالستهم ممرضة للقلوب". والمقصود بأهل الأهواء فرق البدع الذين اتبعوا *الهوى والشبهات* في دينهم. ففي قوله هذا توجيه وقائي: الابتعاد عن مخالطة الفكر المنحرف لئلا يُعدي القلب السليم.
- **الإمام مالك بن أنس** (ت 179هـ) إمام دار الهجرة قال كلمة مشهورة" :*كلُّ أحدٍ يُؤخذ من قوله ويُردّ، إلا صاحب هذا القبر* ﷺ "مشيرًا لقبر النبي. هذه المقولة وإن كانت في باب الاجتهاد، لكنها تشير أيضًا إلى معيار عدم *الانحراف* :فميزان الصحة والضلال هو الوحي وما وافقه. وكل عالم أو متكلم معرض أن يخطئ، فمن اتبع زلّات العلماء بلا برهان فقد انحرف. وهي رسالة ضد **التعصب الفكري** للأشخاص الذي قد يؤدي للانحراف.
- **الإمام أحمد بن حنبل** (ت 241هـ) كان شديدًا على *الجهمية* وأهل البدع الذين عطلوا صفات الله أو قالوا بخلق القرآن، ورغم ما لاقاه في محنة القول بخلق القرآن ثبت على موقفه. ومما نُقل عنه قوله: "إياك أن تتكلم في مسألة ليس لك فيها إمام" – في إشارة إلى خطورة إحداث قول

جديد شاذّ بلا سابقة عند السلف، لأنه likely سيكون بدعة. فهذه قاعدة تحذيرية *إستناد الفكر إلى ما سبق (التراث الصحيح)* ضمان، والخروج منفردًا ابتداع.

- **الإمام الشافعي** (ت 204هـ) يُنسب إليه قوله: "رأيي صواب يحتمل الخطأ، ورأي غيري خطأ يحتمل الصواب". وإن صحت النسبة أو اشتهرت هذه العبارة، فإن فيها روح المنهج السليم: عدم ادعاء احتكار الحقيقة المطلقة في المسائل الاجتهادية الفرعية، مما يقي من انحراف التعصب وإقصاء الآخر. فالانحراف الفكري أحيانًا يكون بادعاء امتلاك الحق المطلق في كل مسألة، في حين منهج أهل العلم التواضع واعتبار احتمال الخطأ والصواب.

هذه الأمثلة وغيرها كثير – خاصة مما أثر عن **الأئمة الأربعة وتلامذتهم** –تؤكد أن قضية **حفظ الفكر من الانحراف** كانت حاضرة بقوة في أذهان علماء الأمة منذ البداية. وقد وضعوا لذلك ضوابط، مثل: الالتزام بفهم الصحابة، رد المتشابه إلى المحكم، تحكيم مقاصد الشرع عند التعارض، نبذ الهوى، احترام التعددية الاجتهادية... وكلها ضوابط تمنع من الشطط الفكري.

خلاصة هذا المحور: أن في نصوص الإسلام *قرآنًا وسنةً وآثارًا* ثروة توجيهية كبيرة تعالج جذور الانحراف الفكري (كالغلو والابتداع والهوى) وتضع معايير للهداية الفكرية (كالاعتصام بالوحي والوسطية واتباع سبيل المؤمنين). هذه القواعد ستكون الأساس الذي نبني عليه فهمًا إسلاميًا راسخًا لمواجهة أي انحراف فكري قد يطرأ.

المحور الثاني: مقاصد الشريعة كإطار لضبط الفكر الإسلامي

يمتاز الفكر الإسلامي بأداة منهجية فريدة وفعّالة لضبط مسار الاجتهاد والفكر، ألا وهي **منظومة مقاصد الشريعة** .في هذا المحور سنبيّن كيف تشكّل *مقاصد الشريعة* إطارًا نظريًا وعمليًا للحفاظ على سلامة الفكر الإسلامي وتوجيهه نحو جادّة الصواب، مما يقيه الانحراف أو يعالج انحرافه إن حصل. سيتضمن ذلك شرحًا موجزًا لمفهوم المقاصد، وصلته بحفظ الدين والعقل، ثم تطبيق ذلك على قضية الانحراف الفكري.

1.تعريف موجز بمقاصد الشريعة وأهميتها

مقاصد الشريعة تعني الغايات والغايات الكلية التي وضعت الشريعة لتحقيقها في حياة الناس، وهي المصالح الكبرى التي جاءت الأحكام لرعايتها. أشهر تصنيف لها هو الضروريات الخمس (أو الست) التي ذكرها العلماء، وعلى رأسها :**حفظ الدين، حفظ النفس، حفظ العقل، حفظ النسل، حفظ المال** (ويضيف بعضهم حفظ الكرامة أو العرض). فالشريعة بكافة أحكامها تهدف في النهاية إلى صيانة هذه الكليات الضرورية لاستقامة حياة البشر فردًا ومجتمعًا. وقد برز علم مقاصد الشريعة كعلم مستقل أو شبه مستقل مع الإمام **الشافعي** في *الرسالة* (بذور الفكرة)، ثم الجويني، وأهم من نظّر له **الإمام أبو إسحاق الشاطبي** في كتابه *الموافقات* (القرن 8هـ)، وصولًا إلى إحيائه في العصر الحديث على يد علماء كبار مثل **محمد الطاهر بن عاشور**)كتابه *مقاصد الشريعة الإسلامية* عام 1946م) وتلامذته **وعبد الله دراز** و**علال الفاسي** ولاحقًا **أحمد الريسوني** وغيرهم.

تشكل المقاصد ميزانًا لفهم النصوص وترشيد الاجتهاد: فهي تُظهر روح الشريعة وراء حرفية الأحكام. مثلاً، عندما نعلم أن حفظ العقل مقصد ضروري، نفهم لماذا حُرّمت المسكرات والمخدرات، ولماذا

وجب طلب العلم، إلخ. وعندما نعلم أن حفظ الدين مقصد أول، نفهم مشروعية الجهاد لحماية العقيدة، وتحريم الردة (وفق شروطها) لصون مجتمع الإيمان، وهكذا.

2.علاقة مقاصد الشريعة بضبط الفكر

إن **ضبط الفكر** يعني أن ينطلق العقل في فهمه للأمور واستنباطه للأحكام أو الأفكار ضمن الحدود التي لا تخل بتلك المقاصد الكلية. لذا يمكن القول بأن *مقاصد الشريعة هي حارس يقظة على عقل المجتهد والمفكر*، توجهه نحو تحقيق مصالح العباد وتمنعه من الشطط الذي يهدم هذه المصالح. ونركز هنا على مقصدين مهمين يتعلقان مباشرة بموضوعنا:

- **حفظ الدين** :إذ يهدف الشرع إلى الحفاظ على الدين الصحيح في عقائده وعباداته وقيمه نقياً من الانحراف والضلال. كل ما يؤدي إلى زعزعة الدين أو تشويهه أو إفساد عقائد الناس فهو ضد مقصد حفظ الدين. فمثلاً **البدع** في العقيدة أو العبادات مضادة لهذا المقصد لأنها تدخل ما ليس من الدين فيه. كذلك *الغلو والتطرف* الذي ينفّر الناس ويشوه صورة الدين، يعد مضرًا بحفظ الدين. لذلك نجد الفقهاء اعتبروا البدعة أشد من المعصية العادية لأن خطرها على الدين أشد. كما أن إقامة الحدود على **المرتدّ** مثلاً يأتي من هذا الباب (على خلاف فقهي في تفاصيله) لكنه في الجوهر لحماية جماعة المسلمين من الانحراف عن الدين. إذن فمقصد حفظ الدين يدفعنا دائمًا لمحاصرة **الانحراف الفكري العقدي** ومقاومته حفاظًا على سلامة المعتقد للأمة.
- **حفظ العقل** :وهذا مقصد عظيم يتعلق بموضوعنا مباشرة، حيث أن العقل أداة التفكير والفهم. الشرع الإسلامي سعى لحماية العقل من كل ما يعطله أو يفسده. ومن تطبيقاته تحريم المسكرات لأنها **تُفسد آلية التفكير** السليم، وأيضًا إيجاب **طلب العلم** لأن العقل إن لم يُنمَّ بالعلم وقع في الجهل والضلال. إن **الانحراف الفكري** يمكن اعتباره نتيجة لخلل في وظيفة العقل لدى الفرد أو

المجتمع؛ إما أن يكون الخلل بسبب شبهة وشكوك أثّرت على تفكيره، أو بسبب شهوة وهوى طغى على عقله، أو جهل وانعدام علم ترك عقله فارغًا فملأته الأباطيل. لكل تلك الأسباب، جعل الشرع *طلب العلم فريضة* لمحاربة الجهل، وحرّم *اتباع الظن والقول بلا علم* لمحاربة الوهم، وشرع الشورى والتواصي بالحق لتصحيح الأفكار، إلخ. إن وجود *مقصد حفظ العقل* يعني ضمنيًا أن **كل فكر أو فهم يناقض صريح العقل السليم** أو يؤدي بالمجتمع إلى *حالة جنون جمعي* هو مرفوض شرعًا. وقد أشار **ابن تيمية** إلى توافق النقل الصحيح مع العقل الصريح، فقواعد الشرع ليست تناقض العقل بل ترشده. ومن هنا، الفكر الإسلامي يقظ ضد أي طرح فكري *لامعقول أو تخريفي* ينسب للدين. فمثلًا رفض علماء الإسلام كثيرًا من خرافات الغلاة والفرق الباطنية لأنها تصادم العقل والنقل معًا، وقد يكون ظاهرها دين وباطنها هدم الدين (كالقول بأئمة لهم علم سري يناقض الشريعة الظاهرة، إلخ).

بالإضافة لهذين المقصدين، يمكن ذكر **مقصد العدل** أيضًا (إحقاق الحق)، فالعقل المفكر ضمن المقاصد أيضًا لا بدّ أن يسعى للعدل والحق، وأي فكرة ظالمة أو منحازة ضد طائفة بلا حق هي مرفوضة. كذلك **مقصد حفظ النفس** يعلّمنا رفض أي فكر يدعو لإهلاك النفس بلا حق (كالإرهاب مثلاً). فالمقاصد منظومة متكاملة تخدم *الاستقامة الفكرية والسلوكية*.

3.تطبيقات المقاصد في مواجهة الانحراف الفكري (أمثلة)

لتوضيح كيف تُستخدم مقاصد الشريعة عمليًا كإطار لمعالجة الانحراف الفكري، نستعرض بعض الأمثلة والنماذج من اجتهادات العلماء قديمًا وحديثًا:

- **اجتهادات الصحابة والتابعين** :نجد أن الخلفاء الراشدين عندما واجهوا مسائل جديدة حرصوا على النظر إلى *مآلات الأمور ومقاصد الشرع* .فمثلاً قرار **أبي بكر الصديق** قتال مانعي الزكاة لم يكن عن نص خاص بل عن فهم لمقصد حفظ الدين ووحدة الجماعة، وأن منع الزكاة - وإن كان شبهة تأويلية عند القوم - يفضي إلى انشقاق خطير. فقد قال مقولته الشهيرة" *:والله لأقاتلن من فرّق بين الصلاة والزكاة* ."...وفي هذا إشارة إلى أنه رأى في فكر مانعي الزكاة انحرافًا يهدد كيان الدين. كذلك اجتهاد **عمر بن الخطاب** في عام الرمادة بتعليق حد السرقة لمراعاة المقصد (حفظ النفس وتخفيف المؤنة) وتعطيل حرفي للنص من أجل المقصد، يعلّمنا كيفية **ترجيح روح الشرع** على ظاهر يمكن أن يؤدي لضرر، مما يحفظ جسد الشريعة من التحجير والانحراف إلى قسوة غير مقصودة.
- **الإمام الشاطبي (ت 790هـ)** :في كتابه *الموافقات* وضع نظرية متكاملة للمقاصد، وضمن حديثه عن البدع والانحرافات ذكر قاعدة أن *كل بدعة تخرج عن تتبع مقاصد الشريعة* وتقع في مصادمة الأدلة، فهي مردودة. ومما أكّد عليه أن بعض الناس قد يستحسنون البدعة لأن ظاهرها الخير، لكنهم يغفلون عن كونها مخالفة لهدي الشارع ومقاصده، فضرب مثالًا بـ**الرهبانية** : ظاهرها العبادة والزهد لكنها في منظور الشريعة *غلوّ وانحراف* لأنها حرّمت الطيبات التي أحلها الله وخالفت الفطرة. فالشاطبي هنا استخدم مقياس المقاصد (هل وافقت البدعة قصد الشارع أم عارضته) للحكم عليها. وهذه طريقة علمية تمنع تسلل الأفكار المنحرفة من باب "حسن النية."
- **ابن تيمية (ت 728هـ) وتلميذه ابن القيم (ت 751هـ)** :كثيرًا ما اعتمدا على روح المقاصد وإن لم يسمّياها بهذا الاسم دائمًا. فمثلاً ابن القيم في *إعلام الموقعين* يقرر قاعدة *تغيّر الفتوى بتغيّر الزمان والمكان والعوائد*، وهذا مراعاة لمقصد المصلحة ودفع الضرر. وتطبيق ذلك في

موضوعنا: عندما ظهرت بعض الأفكار المتشددة، استخدم ابن تيمية مبدأ **التفريق بين الوسيلة والمقصد؛** فبيّن أن التمسك الجامد ببعض الوسائل مع تفويت مقاصدها هو انحراف. مثال: إنكار بعض المبتدعة لمسألة الأمر بالمعروف بحجة الخروج على أئمة الجور، فردّ ابن تيمية بأن الشريعة قصدت صلاح الدين والدنيا، فإن كان إنكار المنكر يؤدي لمنكر أشد سقط إلى حين... إلخ. هذه المرونة مبنية على رؤية مقاصدية تمنع الفكر من الانزلاق إما إلى فوضى أو جمود. كما أن **ابن القيم** في كتاب *إغاثة اللهفان* يتحدث عن "فتنة الشبهات" وكيف علاجها بالعلم واليقين، وفي ذلك حفظ للعقل والدين. ويربط ابن القيم كثيرًا بين فساد الفكر وفساد القلب بسبب الهوى، وهنا يبرز *مقصد تزكية النفس* أيضًا كصلة، إذ لا يستقيم فكر منحرف مع قلب تقيّ غالبًا.

- **علماء العصر الحديث** :نجد **محمد الطاهر بن عاشور (ت 1973م)** مثلاً يشير في كتابه *مقاصد الشريعة* إلى أن من *مقاصدها دفع المفسدة وجلب المصلحة* وأن التشريع الإسلامي مرن ليستوعب كل جديد ما دام يحقق تلك المقاصد. وقد طبّق ذلك في دعوته لتجديد التعليم الديني لتصحيح المفاهيم. و**يوسف القرضاوي** في كتابه عن *الصحوة الإسلامية بين الجمود والتطرف* ركز على قيمة *الوسطية والاعتدال* كغاية شرعية عليا، بل اعتبر الوسطية نفسها من **مقاصد الإسلام الكبرى** .وبيّن القرضاوي أن معالجة الغلو والتطرف (أحد تجليات الانحراف الفكري) تكون بنشر الفهم الوسطي المستنير بنصوص الشرع وروحه، وفضح مظاهر الانحراف كالتعصب واتباع المتشابه وسوء الظن وغيرها. وهذا الطرح المقاصدي الحديث استثمر التراث القديم وأضاف إليه، مشددًا على أن **مقصد الاعتدال الفكري** هو جزء من حماية الدين والعقل والمجتمع.

- **مؤسسات رسمية** :ظهرت مفاهيم مثل *الأمن الفكري* في ضوء المقاصد، حيث عُقدت مؤتمرات علمية (مثلاً في رابطة العالم الإسلامي) تناولت أن الانحراف الفكري المعاصر – سواء التطرف أو الإلحاد – يجب معالجته باستراتيجية شمولية تشمل التعليم والإعلام والتنشئة الأسرية، في إطار مقاصد الشريعة التي توازن بين **حق حرية التفكير** (لأن الإسلام لا يريد عقولًا ميتة) وبين **واجب الالتزام بالضوابط الشرعية** حتى لا تشطح الأفكار إلى ما يهدم الدين والمجتمع.

خلاصة المحور: أن *مقاصد الشريعة* تقدّم منظارًا واسع الزاوية يرى **صورة الدين الكاملة**، فتعالج الانحراف الفكري ليس كجزئية منفصلة، بل كخلل يهدد تلك الصورة الكلية المتوازنة. لذا جاءت المقاصد لتقول: أي فكرة، أو قراءة للنص، أو اجتهاد فقهي، أو حركة فكرية – إذا حفظت الدين والعقل وبقية الضرورات وحققت العدل والمصلحة – فهي مقبولة ضمنيا، وإن أخلّت بتلك الضرورات أو عارضتها فهي انحراف مرفوض. وبهذا الاعتبار، فإن تفعيل التفكير *المقاصدي* لدى علماء الأمة ودعاتها هو صمام أمان ضد تيارات التطرف من جانب، وضد حملات التشكيك والهدم من جانب آخر. فالوسطيّة الأصيلة التي تمثلها المقاصد كفيلة بإذن الله أن *تفرز أي انحراف فكري* وتعالجه بالميزان الشرعي الدقيق.

بعد تثبيت هذين الأساسين الإسلاميين (النصوص والمقاصد) ننتقل إلى الجهة الأخرى من المقارنة، لاستعراض الانحراف الفكري في **الفكر المسيحي الغربي**، تمهيدًا للمقارنة بين المعالجات في المحور الذي يليه.

المحور الثالث: الانحراف الفكري في الفكر المسيحي الغربي

يتناول هذا المحور مفهوم **الانحراف الفكري كما برز في الفكر المسيحي الغربي** عبر مراحله المختلفة. سنستعرض كيف فُهم الانحراف أو الضلال الفكري ضمن التراث المسيحي، وما الأمثلة التاريخية البارزة عليه، وكيف تفاعل معها المفكرون المسيحيون والكنيسة. علمًا أن المصطلحات المسيحية المستخدمة تشمل "بدعة Heresy) "هرطقة (للدلالة على الانحراف العقدي، و"زندقة schism) " ربما (للانشقاق، وكذلك يرد مصطلح "الكفر (infidelity) "لمن ينكر الإيمان رأسًا. سنقسم العرض تاريخيًا وزمانيًا لمزيد من الوضوح:

1.عصر آباء الكنيسة والقرون الأولى

في القرون الميلادية الأولى (من القرن الأول حتى الرابع/الخامس)، تشكل الفكر المسيحي في ظل بيئة ثقافية متعددة (يهودية هيلينية رومانية). تبلورت في هذه المرحلة **العقيدة المسيحية الأساسية** (التوحيد والثالوث، ألوهية المسيح، الخلاص...)، واعتُمِدت صياغات رسمية لها في مجامع كنسيّة كبرى (مثل مجمع نيقية 325م، مجمع القسطنطينية 381م...). أي رأي كان يخالف ما أقرتْه تلك المجامع اعتُبر *بدعة* وواجه رفضًا صارمًا من الكنيسة.

أوغسطينوس (القديس أوغسطين 354-430م) يعد من أبرز آباء الكنيسة في الغرب اللاتيني. عاصر أوغسطينوس عدة *انحرافات فكرية* في زمانه أبرزها:

- **المانوية** :وهي مزيج ديني فارسي اعتنقه أوغسطينوس في شبابه ثم ناظرهم بعد عودته للمسيحية. كانت المانوية برأي الكنيسة هرطقة خطيرة لأنها ثنوية (تؤمن بإلهين: النور والظلمة)

مما يناقض التوحيد المسيحي. حاربها أوغسطين بالحجة في كتبه، موضحًا فساد تصورهم للإله والشر.

- **الدوناتية** :وهي حركة انشقاقية داخل الكنيسة الأفريقية آنذاك، شددت على قداسة الكنيسة ورفضت التهاون مع من سقطوا في الاضطهاد، فاعتبرت أن من ارتد تحت الضغط لا تقبل له توبة. رأى أوغسطين فيها تطرفًا وانقسامًا يهدد وحدة الكنيسة. فجادل دوناتيوس وأتباعه برسائله، داعيًا للوحدة والغفران. وهنا يبرز موقفه من **القسر في الدين** :فبعدما كان رافضًا لاستخدام القوة ضدهم، انتهى إلى قولته الشهيرة مقتبسًا الإنجيل *"أكرههم على الدخول* "(لو 14:23) مسوغًا تدخل الدولة لقمع البدعة حفاظًا على وحدة الإيمان. هذا يعكس صراعًا في الفكر المسيحي :**هل يُستخدم الإكراه ضد المنحرف فكريًا (المبتدع) أم لا** .أوغسطين بدأ مسالمًا ثم رأى أن إنقاذ النفوس يبرر الضغط على المبتدعة للعودة (وهو رأي أثّر لاحقًا في ممارسات العصور الوسطى كمحاكم التفتيش).
- **البيلاجية** :نسبةً إلى الراهب بيلاجيوس الذي أنكر الخطيئة الأصلية واعتقد بقدرة الإنسان على الخلاص بدون نعمة خاصة. عُدَّت هذه الأفكار هرطقة لأنها تناقض مبدأ أساسي في اللاهوت الكاثوليكي عن ضرورة النعمة الإلهية. كتب أوغسطينوس ضد البيلاجية مؤلفات بين فيها أن الفكر البشري إذا اعتمد على نفسه وزعم الكمال فقد ضل عن حقيقة قصوره وحاجته لله.

من هذه الأمثلة تتضح **ماهية الانحراف الفكري في المسيحية المبكرة** :إنه مخالفة *الإيمان المستقيم (أرثوذكسية العقيدة)* كما تحدده الكنيسة الجامعة آنذاك. وقام الآباء أمثال أوغسطين بتحديد ذلك الإيمان ودحض أي فكر مغاير باستخدام الأدلة الكتابية والفلسفية أحيانًا، وأيضًا بدعم من **السلطة الكنسية** التي قد تلجأ لإقصاء المنحرف أو تسليمه للسلطة المدنية لمعاقبته. تجسّد هذا بشكل أوضح في القرون التالية.

2.العصور الوسطى والسلطة الكنسيّة

في العصور الوسطى (تقريبًا القرن السادس حتى الخامس عشر في أوروبا الغربية)، ترسخت **سلطة الكنيسة الكاثوليكية** دينيًا وسياسيًا. صار تعريف الحق والباطل الفكري بيد المؤسسة الكنسية إلى حد كبير. أبرز معالم تلك الفترة:

- **الفلسفة المدرسية (السكولاستية)** :وهي منهج جمع بين الإيمان المسيحي والفلسفة اليونانية (خاصة أرسطو). رائدها توما الأكويني (1225-1274م). الأكويني في عمله الضخم *Summa Theologica* حاول تنظيم كل مسائل الإيمان باستعمال العقل والمنطق الأرسطي في خدمة الشرع المسيحي. بالنسبة له، *الانحراف الفكري* قد يأتي إما من **فشل العقل في فهم صحيح للوحي** (كالتفسيرات الخاطئة)، أو من **تغليب العقل على الوحي فيما لا يجوز** (كأن ينكر إنسان عقيدة الثالوث لأنه لا يستوعبها عقليًا). لذا شدد الأكويني على أن *العقل والوحي مصدران للمعرفة لا يتناقضان جوهريًا* لأن الله هو مصدر الاثنين. فإن بدا تعارض فإما يكون سوء فهم للنص أو قصور من العقل. قال في هذا السياق ما معناه :*الحقيقة واحدة لا تتعدد، فما كان حقيقة عقلية صريحة لا يمكن أن يناقض حقيقة إيمانية صحيحة* .

وهذه المقولة تشبه إلى حد ما ما ذكره ابن تيمية في الإسلام عن صريح المعقول وصحيح المنقول، مما يظهر مسعى كل جانب للتوفيق بين العقل والنقل بطريقته.

ومع ذلك، توما الأكويني عاش أيضًا تحدي "الإيمان ضد البدع". ففي عصره انتشرت أفكار فلسفية من العالم الإسلامي (ابن رشد وغيره) وترجمات جديدة لأرسطو أثارت جدلًا. تصدى الأكويني لبعضها، وأصر على نقاء العقيدة. في مسألة **الهرطقة (heresy)** تحديدًا، قرر في كتاباته أن *المهرطق (صاحب البدعة) أخطر من السارق وقاطع الطريق*، لأن جريمة البدعة

تفسد الدين الذي هو حياة الروح، فضررها أبعد. ولذا أيّد مبدأ أن الكنيسة بعد أن تستتيب الهرطوقي وتسعى لهدايته، إن أصرّ على هرطقته يجوز تسليمُه للسلطة الدنيوية ليُعاقب (وكان الحكم آنذاك يصل للإعدام حرقًا كما حصل لبعضهم). هذه النظرة الشديدة نابعة من رؤية العصور الوسطى أن *وحدة العقيدة أساس وحدة المجتمع*، والانحراف الفكري تهديد وجودي للمجتمع المسيحي.

- **محاكم التفتيش** :كانت ذروة تطبيق النهج أعلاه. ابتداءً من القرن الثالث عشر، أنشأت الكنيسة الكاثوليكية محاكم خاصة لملاحقة *أهل البدع والهرطقات* (مثل طائفة الكاثار في جنوب فرنسا وغيرهم). هذه المحاكم استخدمت وسائل التحقيق القسري والتعذيب أحيانًا، وكانت مثالًا تاريخيًا صارخًا على **مواجهة الانحراف الفكري بالقوة والإكراه** .استمرت حقبة التفتيش قرونًا وشهدت إدانة آلاف المنشقين فكريًا، وكان شعارها حماية الإيمان ولو بالعنف. بالطبع لاحقًا اعتُبرت هذه الممارسات انتهاكًا لحقوق الإنسان والفكر، ولكن ضمن سياقها اعتقد القائمون عليها أنهم يصونون الدين من التحريف.
- **شخصيات بارزة** :شهدت نفس الفترة ظهور فلاسفة ولاهوتيين حاولوا التفكير الحر في ظل القيود، فكادوا يُعتبرون منحرفين. مثل **ويليام أوف أوكهام** (ت 1347م) الذي نادى بفصل أكبر بين الإيمان والعقل (مبدأ موسى بن ميمون وابن رشد أيضًا تأثر به: العقل في واد والإيمان في واد)، وانتقد سلطة البابا. ومثل **جان هوس** في بوهيميا (ت 1415م) الذي انتقد فساد الإكليروس، فاعتُبر مبتدعًا وأُحرق حيًا. نذكر هذا للتأكيد أن *الانحراف الفكري* في نظر المؤسسة الكنسية آنذاك ربما كان يشمل حتى الاعتراض على السلطة الدينية، مما وسّع المفهوم ليشمل الفكر الديني والاجتماعي السياسي معًا.

إذن، في العصور الوسطى الغربية، كانت **معالجة الانحراف الفكري** تتسم بالتشدد المؤسسي، ونزعة فرض الوحدة العقائدية بالقوة. على الجانب الفكري، تطور اللاهوت كثيرًا ووضع أسسًا عقلية للإيمان، لكن بقي هامش الاجتهاد الفردي ضيقًا خوفًا من الزلل.

3.عصر الإصلاح الديني (القرن السادس عشر)

يُعد القرن السادس عشر محطة فاصلة، حيث انتفض مارتن لوثر (1483-1546م) وغيره ضد ما رأوه *انحرافات جسيمة في جسد الكنيسة الكاثوليكية* .تمثلت أبرز الانحرافات التي شخصها **لوثر** في:

- بيع *صكوك الغفران* (وهي ممارسة لجمع الأموال مقابل وعود بمغفرة الخطايا) والتي اعتبرها لوثر خرافة واستغلالًا دينيًا.
- هيمنة البابوية وابتعادها عن روح الإنجيل، وانغماس رجال الدين في تحصيل السلطة الدنيوية.
- تعقيدات العقيدة وطقوسها، التي رآها تحتاج إلى إصلاح وتجريد من الإضافات البشرية.

أصدر لوثر وثيقته الشهيرة *95أطروحة* عام 1517م معلنًا فيها احتجاجه. اعتبرته الكنيسة الكاثوليكية بالطبع **مهرطقًا خطيرًا** وحرمتْه في مجمع1521 worms م، لكن حركته كسبت أنصارًا وقادة آخرين (زفينجلي، كالفن...). وهنا **انقسم الغرب المسيحي فكريًا** :فالكاثوليك رأوا لوثر خارجًا عن وحدة الكنيسة – أي *منحرفًا فكريًا* ودينيًا – يجب ردعه، بينما أتباع لوثر رأوه مصلحًا أعاد الدين إلى أصوله الصحيحة وأن الكنيسة هي التي كانت منحرفة عن الحق! إذا استعرنا مفرداتنا، لقد تبادل الطرفان الاتهام بالانحراف الفكري؛ الكاثوليك اتهموا البروتستانت بالهرطقة، وهؤلاء اتهموا الكاثوليك بتحريف المسيحية الأصيلة. واندلعت بسبب ذلك حروب وصراعات طويلة في أوروبا.

من منظور الفكر نفسه، **الإصلاح البروتستانتي** حمل عدة أفكار جوهرية أثرت على مفهوم الانحراف:

- إعلاء مبدأ **"الكتاب المقدس وحده (Sola Scriptura)** "مقابل سلطة الكنيسة والتقليد. بمعنى أن المرجع الحق هو النص المقدس، فمن خالفه (حتى لو كان بابا أو مجمع) فهو المنحرف. هذا شبيه بمفهوم *العودة للأصول* الذي ينادي به المصلحون في كل دين عند الشك في تراكمات تقاليدية.
- **حرية تفسير الكتاب** لكل مؤمن وعدم حصره بالإكليروس. أدى هذا إلى تنوع كبير في التفسيرات البروتستانتية وحتى ظهور فرق شتى بينهم لاحقًا (فالحرية سيف ذو حدين، أعطت حيوية لكنها فتحت باب اختلافات عقائدية جديدة كظهور المعمدانيين، الأنابابتست، الميثودست...إلخ). ومع ذلك تمسك الإصلاحيون بوحدة أساسية في الأصول.
- **رفض بعض العقائد الكاثوليكية** باعتبارها زيادات: مثل شفاعة القديسين، المطهر، الرهبنة الإجبارية... فالتصور البروتستانتي أن هذه انحرافات دخلت في العصور الوسطى ويجب إزالتها للعودة لنقاء الإنجيل.

إذن، شهد عصر الإصلاح إعادة تعريف *ما هو الفكر السليم وما هو المنحرف* .وتبادل الموقعان؛ فالكاثوليكية صارت محافظة تعتبر ما سواها انحرافًا، والبروتستانتية نصّبت نفسها تصحيحًا لانحراف قديم. وهذا يبرز كيف يرتبط *الانحراف الفكري بتحديد المرجعية* :حين كانت المرجعية بابوية صار الانشقاق عنها هرطقة، وحين تحولت المرجعية للنص مباشرة صار أي انحراف عنه (وفق التفسير الجديد) هو الضلال.

4.عصر التنوير والحداثة وما بعدها

بدايةً من القرن السابع عشر والثامن عشر، دخل الغرب المسيحي في حقبة جديدة تميزت بصعود **العقلانية العلمية والفلسفية** وتراجع هيمنة الكنيسة على الفكر. أدى هذا إلى تغير كبير في طبيعة *الانحراف الفكري* المنظور:

- **العقلانية والشك** :مثل فكر **رينيه ديكارت** (1596-1650م) الذي انطلق من منهج الشك للوصول إلى اليقين) *الكوجيتو الشهير: أنا أفكر إذن أنا موجود* .(ديكارت نفسه كان مؤمنًا وأثبت وجود الله بعقله، لكنه مهّد لعصر يقيم العقل حكمًا أعلى. في البداية، قاومت الكنيسة بعض الأفكار العلمية (كما في حالة غاليليو)، لكنها تدريجيًا وجدت نفسها مضطرة للتكيف. بالنسبة للمسيحي التقليدي في ذلك العصر، ربما اعتُبرت فلسفات الإلحاد الناشئة (عند بعض فلاسفة التنوير المتأخرين أو الثورة الفرنسية **(انحرافًا فكريًا خطيرًا** لأنها أنزلت الدين من عليائه. وأيضًا ظهرت **الماسونية وفلسفة 自然** التي خلطت الروحانيات، فعدّها البعض هرطقات حديثة.

- **الليبرالية البروتستانتية** :في القرن التاسع عشر، بدأ تيار داخل البروتستانتية يسمى باللاهوت الليبرالي، حاول قراءة الكتاب المقدس قراءة نقدية تاريخية، وتأويل المعجزات رمزيًا، ومسايرة العلوم الحديثة. شخصيات مثل **فريدريش شلايرماخر** (ت 1834) ركزت على *التجربة الدينية الذاتية* بدل الالتزام الحرفي بالنص. هذا أثار حفيظة المحافظين البروتستانت الذين رأوا في ذلك انحرافًا عن الإيمان القويم وتنازلاً أمام الفكر العلماني. فظهر صراع بين *الحداثيين والأصوليين* (Fundamentalists)المسيحيين في أوائل القرن العشرين، خاصة في الولايات المتحدة، حول أمور مثل نظرية التطور لداروين وكيفية فهم قصة الخلق. الأصوليون تمسكوا بحرفية الكتاب ورموا الليبراليين بالهرطقة؛ والليبراليون اتهموا هؤلاء بالجمود والتحجر.

- **اللاهوت المعاصر والتوفيقي** :تقدم الزمن وأصبح كثير من الكنائس تتبنى مواقف تصالحية مع الحداثة. عقد **المجمع الفاتيكاني الثاني** (1962-1965م) في الكنيسة الكاثوليكية كان مثالًا واضحًا على *تصحيح داخلي للمسار الفكري* :أقرّ بأمور كانت تعد قبلاً انحرافًا، مثل حرية الدين والفكر، واحترام الآخرين، واللغة الوطنية في القداس بدلا من اللاتينية فقط، إلخ. بمعنى أن الكنيسة اعترفت أنها بحاجة لتطوير رؤيتها لتواكب العصر وتتجنب "الانحراف" عن حاجة الناس. هذه مفارقة حيث صارت الجمود نفسه يُنظر إليه كنوع من الانحراف عن رسالة الكنيسة المحبة.

أيضًا ظهر لاهوتيون مثل **بول تيليش** (1886-1965م) الذين حاولوا إعادة صياغة الإيمان بلغة وجودية فلسفية تستوعب قلق إنسان العصر. تيليش رأى أن كثيرين يجعلون **أمورًا زائلة همًّا مطلقًا** لهم (كالقومية أو المال أو الأيديولوجيا)، وهذا برأيه *شرك* حديث وانحراف عن الإيمان الحق بالله. فهو بذلك أدان *انحرافًا فكريًا معاصرًا* حيث يعبد الناس آلهة زائفة دون وعي. وكذلك **هانز كونغ** (1928-2021م) الذي نقد *عصمة البابا* ودعا لانفتاح أكبر، فواجهته الفاتيكان بسحب رخصة التعليم اللاهوتي. كونغ انتقد التعصب والتزمت داخل الكنيسة ودعا إلى *فكر ديني منفتح عالميًا* .كما سبق وذكرنا قوله مشتكيا من التعصب كمشكلة عامة. ومن أقواله أيضًا المشهورة" :*لا سلام بين الأمم دون سلام بين الأديان، ولا سلام بين الأديان دون حوار بينها* – "فهو بذلك يوجه الفكر المسيحي نحو *التعايش والحوار* كسبيل لمنع انحرافه إلى صدام وصراع.

في الوقت ذاته، الكنائس الإنجيلية المحافظة في أمريكا مثلًا تضع خطوطًا حمراء للأفكار المقبولة: فهي تعتبر تيارات ما بعد الحداثة، والنسبية الأخلاقية، والإلحاد الجديد، بل حتى بعض الحركات داخل الكنيسة

(كاللاهوت النسوي الراديكالي الذي يصوّر الله أنثى مثلاً) **انحرافات فكرية** يجب التصدي لها عبر الوعظ والتعليم.

نرى إذن أن مفهوم *الانحراف الفكري* في المسيحية الغربية تطور وتنوّع: من هرطقة عقائدية كلاسيكية (كإنكار الثالوث) إلى اعتراضات إصلاحية داخلية (فساد الممارسات في الكنيسة) إلى تحديات فلسفية وعلمية خارجية (الإلحاد والعلمانية) إلى تأويلات لاهوتية جديدة (الليبرالية). كل مرحلة تطلّبت ردود فعل مختلفة: قمعية أحيانًا، حوارية أحيانًا، انشقاقات وتأسيس فرق جديدة أحيانًا، أو إصلاح ذاتي كما في الفاتيكان الثاني.

مجمل القول، الفكر المسيحي الغربي تبلور عبر *سجال مستمر بين المحافظة والتجديد*، كل طرف يتهم الآخر بشكل ما بالانحراف: المحافظون يتهمون المجددين بالتساهل في العقيدة، والمجددون يتهمون المحافظين بالانحراف عن روح الدين وحاجات الزمن. وفي العقود الأخيرة، كثير من الكنائس تحاول إيجاد توازن بتحكيم **محبة المسيح وتعاليمه الأخلاقية** كمعيار: فكل فكر يبث الكراهية والتعصب مرفوض (مهما تستر بالدين)، وكل فكر يخالف محبة الله والإنسان هو الضلال بعينه. هذا معيار قيم أخلاقي تطوّر ليكون ربما أهم من التدقيقات العقائدية القديمة.

بعد هذا العرض، نكون قد رسمنا صورة، وإن مبسطة، لمسألة الانحراف الفكري ضمن المسيحية الغربية. ما سبق مهد الطريق لنقارن الآن بين المنهجين الإسلامي والمسيحي في معالجة الانحراف الفكري وسبل التعامل معه.

المحور الرابع: مقارنة بين مناهج المعالجة في كلا الفكرين

في هذا المحور نقوم بإجراء **مقارنة تحليلية** بين منهج الإسلام ومنهج الفكر المسيحي الغربي في التعامل مع *الانحراف الفكري* .سننظم المقارنة حسب عدة جوانب أساسية، ونبرز أوجه التشابه والاختلاف، وكذلك الأسباب التاريخية أو العقدية خلفها. الهدف هو فهم كيف عالج كل منهما الظاهرة، وما الذي يمكن أن يتعلمه أحدهما من الآخر (إن أمكن) في إطار من الاحترام والموضوعية.

1.المرجعية والأساس التشريعي للفكر

- في **الإسلام** :المرجعية العليا الثابتة للفكر هي الوحيان (القرآن والسنة الصحيحة)، إضافة إلى ما أجمع عليه علماء الأمة فهمًا وتطبيقًا. هذه المرجعية واضحة ومحددة منذ البداية، وهي محفوظة بالنص المقدس (لاسيما القرآن المحفوظ بنصه). وبالتالي أي انحراف فكري يُقاس بهذا المعيار: مدى موافقته أو مخالفته للنصوص والثوابت الشرعية. أما سلطة **العلماء** فهي سلطة تفسيرية واجتهادية وليست تشريعية مستقلّة؛ بمعنى أن العالم عندنا يبيّن حكم الشرع ولا يصنعه من عنده. هذا أكسب المنهج الإسلامي ثباتًا نسبيا في تعريف *الصواب والخطأ الفكري* على مر القرون، فالنموذج محفوظ في الكتاب والسنة.
- في **المسيحية الغربية** :الوضع أكثر تعقيدًا بسبب طبيعة تطور المرجعية. في الأصل، الكتاب المقدس (العهد القديم والجديد) هو المرجع الأسمى. لكن خلال التاريخ الكنسي، أصبحت **الكنيسة** (متمثلة بالباباوات والمجامع) هي المفسر الرسمي والمقرر لما يعد عقيدةً وما يعد هرطقة. أي أن المرجعية انقسمت بين *نص مكتوب* و*تقليد كنسي* .هذا جعل مفهوم الانحراف الفكري مرتبطًا إلى حد بعيد بالخروج عن *رأي الكنيسة الرسمي* .ومع انشقاق البروتستانت، تغيّر المشهد: البروتستانت جعلوا المرجع الوحيد *النص الإنجيلي* (Sola Scriptura)رافضين تقليد روما،

لكن هذا آل بهم إلى اختلافات تفسيرية كثيرة. إذن يمكن القول: المرجعية المسيحية لتحديد الانحراف كانت ولا تزال ليست موحدة تمامًا، إذ تعتمد على أي كنيسة أو طائفة تنظر. فمثلًا أمر يعتبره الكاثوليك هرطقة (كالقول بلا عصمة العذراء مريم مثلاً) قد لا يعتبره البروتستانت انحرافًا بل هو رأي مشروع لديهم. في العصر الحديث، حتى داخل الطائفة الواحدة تنوعت التوجهات كما أسلفنا (محافظون/ليبراليون)، فلم تعد المرجعية محصورة بسلطة مركزية إلا لدى التقليديين. بينما في الإسلام السنّي عمومًا، رغم الاختلافات المذهبية الفرعية، بقيت الأصول الكبرى محل اتفاق، أي هناك إجماع واسع على *مظلة فكرية عامة* ينضوي تحتها غالبية العلماء (مثال: القرآن كلام الله ليس مخلوقًا، محمد خاتم النبيين، أركان الإيمان والإسلام...)، ومن شذّ عن ذلك اعتُبر *منحرفًا أو مبتدعًا* .هذه الوحدة العقدية العامة حصّنت الأمة نسبيًا، مقارنةً بتشرذم الفرق المسيحية عقديًا.

الخلاصة :المرجعية الإسلامية أكثر وضوحًا ووحدةً، مما جعل الحكم على الانحراف الفكري عملية (نظريًا) أوضح معيارًا، وإن كانت الممارسة تختلف أحيانًا. المرجعية المسيحية الغربية عانت من انقسامات بين النص والتقليد وداخل التقليد ذاته، مما جعل مفهوم الانحراف نسبيًا باختلاف الجهة الحاكمة. وهذا فرق جوهري أثّر في طبيعة معالجة كل طرف للانحراف: فحيث المرجع واضح تكون المواجهة فكرية/شرعية مباشرة، وحيث المرجع ملتبس قد ينزلق الأمر إلى قوة السلطة كما حدث كثيرًا في تاريخ الكنيسة.

2.أسلوب المواجهة والمعالجة :الإقناع الفكري مقابل السلطة والإكراه

- **في الإسلام** :الأصل في مواجهة الأفكار المنحرفة هو *النقاش العلمي والدعوة بالحسنى*، يتبعها إن لزم *ضبط اجتماعي* .دعوة القرآن :﴿**ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ...**﴾ .فنجد مثلا أن منهج

النبي ﷺ حيال المنافقين وأهل الأهواء كان تجنب الفتنة الكبرى ما أمكن، والتركيز على تعليم الناس الحق. العلماء عبر التاريخ واجهوا أهل البدع بالمناظرات والتأليف (كمناظرة ابن عباس للخوارج، وردود الأئمة على القدرية والجهمية، إلخ). نعم، استخدمت السلطة أحيانًا يدها (كما فعل المأمون بفرض القول بخلق القرآن بالعكس، أو محنة أحمد ضد الجهمية)، لكن بالمجمل ظل الإطار *علميًا فكريًا* .وحتى حد *الردة* مثلا - كعقوبة دينية - ظل تطبيقه محدودًا وفي أضيق نطاق، وغايته حماية المجتمع من التفكك أكثر من مجرد معاقبة الفكر بذاته. وفي التراث الفقهي، ورغم وجود تشريعات للتعامل مع الزنادقة أو الدعاة إلى البدع الضالة، غالبًا اشترط الفقهاء **الاستتابة أولًا**، أي محاولة إرجاع المنحرف بالفكر والإقناع قبل أي عقوبة. هذا يظهر تغليب الإقناع.

- **في المسيحية الغربية** :كما رأينا، ساد نهج أكثر صرامة لقرون طويلة، يتلخص في مقولة أوغسطين "أكرههم على الدخول" – أي استخدام **القسر** مع المنحرف عقائديًا باعتبار أن ذلك "لمصلحته الروحية"! وتجلّى الأسلوب القسري في محاكم التفتيش وغيرها، حيث صار *القمع والتعذيب وحتى الإعدام* أدوات للتعامل مع أصحاب الفكر المخالف. على مستوى النقاش الفكري، نعم حصلت سجالات (مثلا مناظرات بين الكاثوليك والبروتستانت، أو كتابات دحضية ضد فلسفة الإلحاد)، لكنها غالبًا ترافق معها ظل السلطة الذي يخيف المخالف. فقط مع قدوم عصر التنوير وانحسار سلطة الكنيسة، بدأت **حرية الفكر** تتسع وأصبح الرد على الأفكار الضالة يتم بالكتابة والوعظ لا بالسيف. الكنيسة الكاثوليكية نفسها تخلت رسميًا عن الإكراه مع الزمن، خاصة بعد الفاتيكان الثاني الذي أكد "لا إكراه في الدين" من منظور مسيحي. أما البروتستانت، فمنذ البداية رفضوا إكراه الضمير، لكن للأسف حتى بينهم وقعت حوادث اضطهاد (مثلاً

إصلاحيو جنيف بقيادة كالفن أعدموا العالم مايكل سيرفيتوس بتهمة الهرطقة في 1553م – إذن العقلية القمعية كانت عامة أوربيًا حينها).

الخلاصة :المنهج الإسلامي في العموم أكثر اعتمادًا على *الإقناع والإصلاح التدريجي*، بينما اتسم المنهج الكنسي في الغرب لفترة طويلة *بالحسم العنيف* .هذا لا يعني أن المسلمين لم يمارسوا عنفًا ضد زنادقة أو قرامطة مثلًا، ولكن مقارنةً تاريخية تشير إلى أن *محاكم التفتيش* مثلاً لا نظير لها إسلاميًا كمؤسسة واسعة النطاق. ربما يعود ذلك لسبب المرجعية أعلاه وثقة علماء الإسلام بالنص لإقناع المخالف، بينما الكنيسة رأت نفسها مضطرة لحماية الإيمان بالقوة لعدم وجود نص قاطع يحتكم إليه الجميع بنفس الفهم (فالكتاب المقدس حمّال أوجه تفسيرية دون سلطة الكنيسة).

3.دور العقل والفلسفة :التوفيق أم التصادم؟

- **الإسلام** :شهد الفكر الإسلامي تيارات متنوعة في موقفها من العقل والفلسفة (من متشدد يرفض الفلسفة كابن حنبل مثلًا إلى معتدل كابن رشد مثلا الذي حاول التوفيق). لكن بشكل عام، *العقل في الرؤية الإسلامية خادم للوحي وليس نديدًا له* .مقولة ابن تيمية" :*صريح المعقول لا يعارض صحيح المنقول* "تلخص ذلك. وبالتالي، تم اعتبار *الانحراف الفكري* أيضًا ما يصدر عن الفلاسفة إن أنكروا قطعيات الدين. حصلت معارك فكرية: الغزالي كفّر فلاسفة كابن سينا في مسائل كقدم العالم وإنكار المعاد. لكن الجدير بالملاحظة: في الإسلام رغم هذه الخلافات، لم تُنشأ مثلا محاكم لقتل الفلاسفة أو حرق كتبهم بالجملة (استثنائيًا حدث لبعض الباطنية السياسية). في الأغلب، حصل *تعايش* حذر بين تيار أهل الحديث والتيار الفلسفي، مع حسم فكري لصالح الأشاعرة مثلًا في العقيدة الوسطية. يعني في النهاية استطاع الفكر الإسلامي أن يهضم كثيرًا من الفلسفة

اليونانية بعد تنقيحها (كما فعل ابن رشد الذي تصدى للغزالي). والنتاج كان ثراء فكريًا قلل من حدة تصنيف كل جديد كضلال.

- **المسيحية الغربية** :أيضًا مرت بمرحلة تكيّف مع الفلسفة (عصر المدرسيين: توما الأكويني وثوماسكوت، أوغسطين قبلهم استخدم الأفلاطونية). لكن الخلاف جاء مع تصاعد العلم الحديث وفلسفات تشكك في الدين. فترة ما بعد التنوير في أوروبا شهدت **تصادمًا ظاهرًا بين العلم/الفلسفة والدين** :قصة غاليليو مع الكنيسة، نظرية داروين مقابل قصة الخلق، نقد الكتاب المقدس تاريخيًا (جعلوه نصًا أدبيًا يخضع للنقد كأي كتاب)، ظهور الماركسية والوجودية... إلخ. كل هذا وضع الكنيسة (كاثوليكية وبروتستانت محافظين) أمام سيل من الأفكار "الدنيوية" التي اعتبروها انحرافات عن الإيمان. بعض الكنائس اختارت **التكيف** (كما فعلت الكنيسة الكاثوليكية تدريجيًا: تبنت قراءة غير حرفية لسفر التكوين، تقبل العلم الحديث)، وبعض الجماعات المسيحية ظلت على موقف تصادم (creationists الذين يرفضون نظرية التطور مثلاً .(وهكذا، بقي خطّان: خط *التوفيق بين العقل/العلم والإيمان*)مثله كثيرون من اللاهوتيين المعاصرين، وحتى بابوات كتبوا "الإيمان والعقل" مثلاً البابا يوحنا بولس II كتب رسالة *Fides et Ratio*أكد فيها انسجام الإيمان الصحيح مع العقل الصادق)، وخط آخر *رافض للحداثة* يرى فيها خطيئة وانحراف. في العالم الإسلامي، صار لدينا وضع مشابه في القرن 19-20 (تيار إصلاحي حداثي وتيار محافظ تقليدي)، لكن ربما الفارق أن المسلمين عمومًا لم يواجهوا صدمة صراع العلم والدين بنفس الحدة، لأن القرآن لم يناقض العلم الحديث المباشر ولأن المسلمين لم يجعلوا فهمهم للنص جامدًا كما كان الفهم الكنسي في العصور الوسطى.

الخلاصة :كلا الحضارتين سعتا للتوفيق بين *العقل والنقل* في لحظات ما، وكلاهما شهد صراعات حين بدا العقل مكتسحًا مجال الدين. الإسلام تمكن غالبًا من إبقاء مساحة العقل تحت إطار النقل ومقاصد

الشريعة، فتجنّب أزمة ارتداد شامل أو إلحاد جماعي كما حصل في بعض المجتمعات الغربية (أوروبا شهدت تراجعًا كبيرًا في التدين بعد صراعات الكنيسة والعلم). في الغرب المسيحي، حصلت أزمة ثقة بين الفكر الديني والفكر الفلسفي/العلمي عند كثيرين في عصر النهضة والتنوير، فآثروا التخلي عن الدين كليًا (نشوء العلمانية القاسية). وهذا نفسه يُعتبر في أعين المسيحيين المحافظين انحرافًا فكريًا جسيمًا (أي العلمنة والإلحاد). إذن الإسلام ربما نجح أكثر في تجنّب الفجوة بين الدين والعقل، وبالتالي قلل أحد منابع الانحراف (وهو شعور الناس بأن الدين مناقض للعقل). بينما الغرب اضطر للقيام بـ**إصلاحات جذرية** لتجسير الفجوة (كالاعتراف بأخطاء الكنيسة، وإعادة تفسير النصوص بشكل أكثر عقلانية)، وقد نجح جزئيًا لكن بعد أن كان قطاع من المجتمع قد فارق الإيمان.

4.أنواع الانحراف الفكري المحددة ومضامينها

لنقارن هنا *مضامين الانحراف الفكري* الشائعة في كل:Tradition

- **في الإسلام** :الانحراف الفكري أخذ أشكالًا متعددة عبر التاريخ الإسلامي:
  - *الغلوّ الديني والتطرف* :مثل نهج الخوارج قديمًا، ونهج بعض الجماعات المتشددة حديثًا. هذا يتمثل بتكفير المسلمين واستحلال الدماء بناءً على فهم ضيق متشدد. اعتبره كل التيارات الإسلامية السائدة انحرافًا وضلالة.
  - *البدع العقدية أو العملية* :كظهور فرق لها عقائد مغايرة (معتزلة – خالفوا في مسائل الصفات والقضاء والقدر؛ شيعة غلاة – أضفوا صفات ألوهية على الأئمة؛ باطنية – حرفوا تفسير الشريعة)، أو بدع في العبادات (كالاحتفال بموعد لم يأت به الشرع، إلخ). هذه أيضًا جوبهت من أهل السنة بالتفنيد والنقد.

- *الإلحاد والزندقة* :وهي نادرة تاريخيًا في المجتمعات الإسلامية لكنها وُجدت كحالات فردية أو تيارات محدودة (كالبراهمة الذين أنكروا النبوات، أو بعض الزنادقة من أتباع الفلاسفة الذين أنكروا البعث). تعامل معها المسلمون غالبًا بالحجة، وأحيانًا بالسيف لو اقترنت بنشاط سياسي هدام (مثل القرامطة كانوا باطنية إسماعيلية هدموا الكعبة، هؤلاء حوربوا عسكريًا).
- *التقليد والجمود* :وهنا ننتبه أن *الانحراف ليس فقط بالزيادة بل بالنقصان أيضًا* .فبعض العلماء عدّوا **الجمود الفكري** وعدم التجديد انحرافًا عن روح الشريعة. مثال: ابن القيم انتقد *المتعصبين للمذاهب* حتى لو ظهر لهم الدليل بخلاف مذهبهم. محمد عبده والإصلاحيون اعتبروا جمود المؤسسة الدينية ورفضها للإصلاح ضربًا من الانحراف عن منهج السلف الصالح. إذًا في الإسلام أيضًا هناك تصور أن التحجر جمودًا كالتفلت تمامًا كلاهما انحراف عن الوسطية. وفي الحديث "لا تشدّدوا فيشدد الله عليكم" إشارة إلى أن التشدد الزائد مرفوض كالتساهل المنكر.

- **في المسيحية الغربية**:

- *الهرطقات اللاهوتية* :على مدى طويل كان أهم صور الانحراف الفكري هي هرطقة في العقيدة: إنكار عقيدة ما (الثالوث، لاهوت المسيح، الخطيئة الأصلية،... إلخ) أو إضافة عقيدة غير معتمدة. فجلّ التاريخ الكنسي منشغل بهذا النوع (قصة أريوس، أوطاخي، نسطور... وكلهم قيل عنهم هراطقة لأنهم قدّموا فهمًا مغايرًا لمسيحيتهم).
- *الشعوذة والتنجيم* :في أوروبا القرون الوسطى أيضًا خرجت بعض الظواهر كالسحر والشعوذة التي خلطت بين الدين والخرافة. الكنيسة أحيانًا لاحقت "الساحرات" وغيرهم باعتبارهم منحلّين فكريًا ودينيًا (وللأسف أحرق كثيرون بتهمة السحر أيضًا). فاعتبروا

السحر *انحرافًا عن الإيمان القويم* وعودة لوثنية وثقة بالشياطين. يشبه هذا في الإسلام محاربة الكهانة والسحر لأنه يفسد عقيدة التوحيد.

- *الإلحاد والعلمانية* :ابتداءً من الثورة الفرنسية 1789 وما تلاها، بدأ فكر يجاهر بعدم الحاجة للدين أو إنكار وجود الله ينتشر بين نخبة أوروبية ثم عامة. الكنيسة رأت هذا الخطر الأكبر في العصر الحديث، فقاومت بموجات إحياء ديني. حتى منتصف القرن 20 كانت نسبة التدين جيدة، لكن بالنصف الثاني خفت صوت الكنيسة في أوروبا مع صعود المادية الاستهلاكية .**إلحاد الدولة** كما كان في الشيوعية (الاتحاد السوفيتي) مثّل انحرافًا مؤسسيًا تصدى له قادة مثل البابا يوحنا بولس الثاني الذي دعم حركات التحرر من الشيوعية في بولندا.
- *الأصولية الدينية المسيحية* :وهنا المفارقة، فبعض يرون أن *التطرف المسيحي البروتستانتي مثلاً* الذي يرفض أي تسامح (كما في بعض المجموعات الإنجيلية أو ما يسمى اليمين المسيحي المتشدد في أمريكا) هو أيضًا *انحراف فكري* عن رسالة المسيح السمحة. لذا حتى داخل المسيحية هناك نقد متبادل: المعتدلون يتهمون المتشددين بالتعصب الأعمى (مثلاً نقد هانز كونغ لمحاكم التفتيش والتعصب)، والمتشددون يتهمون هؤلاء بالتفريط بالدين.
- *نظريات وفلسفات أخلاقية مخالفة* :مثل الدفاع عن *الإباحية أو المثلية الجنسية أو الإجهاض* كحقوق مقبولة اجتماعيًا – الكنائس التقليدية تعتبر ذلك انحرافًا أخلاقيًا وفكريًا عن القانون الطبيعي وإرادة الله. بينما الكنائس الليبرالية تقبله. فهذا خلاف معاصر: هل تغيير المفاهيم الأخلاقية بحسب الثقافة هو تطور مقبول أم انحراف عن ثوابت الدين؟

جواب يختلف بالطائفة. في الإسلام حُسم غالبًا بأنه انحراف عن الفطرة، لكن الغرب منقسم.

موازنة هذه الأنواع :نلاحظ أن كثيرًا من *مظاهر الانحراف الفكري متشابهة* (بدع، غلو، إلحاد، خرافة...). لكن **حدة الظاهرة** ربما كانت أشد في الغرب مؤخراً مع تفشي العلمنة وفقدان الإيمان لدى كثيرين، بينما عالم الإسلام رغم وجود تيارات إلحاد يبقى عموم المجتمعات مؤمنًا بدرجة كبيرة. بالمقابل، التطرف الديني العنيف حاليًا يبرز في بعض المجتمعات المسلمة أكثر من المسيحية (ظاهرة القاعدة وداعش مثلاً). فهذا اختلاف في التحديات: المسلمون اليوم يواجهون تطرفًا مسلحًا وقراءات مغالية، بينما المسيحيون يواجهون لامبالاة دينية وتحلل قيمي في مجتمعاتهم. وهذا فارق ينعكس في **معالجات معاصرة** سنتطرق لها في المحور الخامس.

5.الوسطية والاعتدال كقاسم مشترك

رغم الفوارق، هناك فكرة محورية **يلتقي فيها المنهجان** كنقطة إيجابية، هي *مفهوم الوسطية والاعتدال*.

- الإسلام يدعو لأمة وسط، ونبذ الإفراط والتفريط .*المنهج الوسطي* الذي تبناه القرآن والسنة هو صمّام أمان: "لا غلوّ ولا تقصير."
- المسيحية أيضا في جوهر تعاليم المسيح تجد دعوة للمحبة والرحمة والتوازن (مثلاً المسيح انتقد الفريسيين اليهود على حرفيتهم القاسية وتشدّدهم في الطقوس دون رحمة، قائلاً لهم "تركتم الأثقل في الناموس: العدل والرحمة والإيمان"). فهناك *روح وسطية* حاضرة في جوهر المسيحية. من جهة أخرى، حركة الإصلاح البروتستانتي أيضاً انطلقت لإيجاد توازن بين إيمان القلب وممارسات الخارج، ونبذ الممارسات المبالغ بها.

- المفكرون المعتدلون اليوم من الجانبين يشددون على هذه النقطة :**نبذ التطرف** (دينيا كان أم إلحاديا) و**نبذ الانحلال الكامل**، نحو طريق وسطي. هانز كونغ مثلا شخّص "سرطان التعصب الديني" كخطر، وفي الإسلام القرضاوي سماه "ظاهرة الغلو والتطرف" وعالجها بالوسطية. الاثنان يدعوان لاعتدال. كذلك **بابا الفاتيكان الحالي (فرنسيس)** يركز على رحمة الكنيسة وتخفيف الأحكام المتشددة، وفي العالم الإسلامي **هيئات العلماء** تروّج فكراً وسطياً ضد الإرهاب.

إذن هناك التقاء مهم هنا :**الاتفاق على أن الفكر السوي هو الفكر المعتدل المتوازن**، وأن الانحراف إما أن يكون بتشدد زائد أو بتحرر منفلت، وكلاهما خطر اجتماعي وديني. هذه القناعة المشتركة تشكل *أرضية تعاون* ربما، كما سيأتي في التوصيات.

6.النتائج التاريخية للمعالجات

يمكننا أيضًا مقارنة حصيلة التعامل مع الانحراف في التجربتين:

- في العالم الإسلامي: رغم ظهور فرق وانقسامات، بقيت وحدة الأمة العقدية العامة محفوظة (إلى حد كبير أهل السنة والجماعة أغلبية واضحة، والقرآن موحد، والقبلة واحدة). التطرفات كادت تذهب ببعض المناطق (مثل زمن الحشاشين الباطنية أو دولة القرامطة) لكن تم تجاوزها. الفكر الإسلامي احتفظ بحيويته في كثير من الفترات (عصر النهضة العباسية كان قمّة تفاعل فكري). في العصر الاستعماري حدثت هزّة فكرية، لكن الصحوة الإسلامية عادت تطرح معالجة للغزو الفكري بالتأكيد على الهوية، وأيضًا مراجعة الذات لإزالة شوائب الجمود. اليوم،

هناك تحديات كما قلنا: التطرف العنيف والإلحاد بين بعض الشباب، لكن هناك حركة فكرية نشطة لمواجهتهما من خلال تجديد الخطاب الديني والتعليم وغيرها.

- في الغرب المسيحي: مرّ بتحولات كبرى. نتيجة العصور الوسطى والمحاكم: نفور كثيرين من الدين (حين جاءت فرصة التنوير قفزوا بعيدًا عن هيمنة الكنيسة). نتيجة الإصلاح: انقسام دائم بين كاثوليك وبروتستانت، لكن أيضًا إثراء للمجتمع بفكر تعددي وربما تقليل للاستبداد الديني. نتيجة العلمنة: تقدم علمي وتقني كبير لكن أزمة معنوية وروحية لدى البعض) انتشار nihilismعبثية مثلا .(الكنيسة اليوم تحاول استعادة دورها الأخلاقي (مثلا دور الكنيسة الكاثوليكية في دعم حقوق الإنسان والسلام). في جانب التطرف، المسيحية المعاصرة قلّ فيها العنف الديني الداخلي (بعد حروب الثلاثين عاما 17م لم يعد في أوروبا حرب دينية مفتوحة)، لكن حصل إحياء للتطرف السياسي المغلف بالمسيحية (كجماعات التفوق العرقي في الغرب التي تتبنى أحيانًا شعارات مسيحية متعصبة). هذا محدود عمومًا مقارنة بالتطرف في أماكن أخرى.

الاستنتاج المقارن:

- الإسلام نجح في **تحقيق تماسك عقدي واجتماعي نسبي** رغم العواصف، بفضل وضوح مبادئه وربما أسلوبه المرن نسبيًا في الإقناع. لكن يعاني حاليًا من تحدي تطرّف عنيف ربما نتيجة عوامل سياسية وتخلف التعليم في فترات ما.
- المسيحية الغربية **خسرت الكثير من وحدة مجتمعها الديني** بسبب التشدد السابق ثم رد الفعل الحداثي العنيف. لكنها استعاضت بوحدة دنيوية (قومية ثم أوروبية) مع تراجع دور الدين. الآن هي تحاول إعادة الدين كعنصر إيجابي بدون أخطاء الماضي.

إجمالاً، كل من المنهجين لديه نجاحات وإخفاقات في معالجة الانحراف الفكري. ولعل الدرس المشترك : **لا بد من التوازن والاعتدال في أي معالجة** –فالتساهل التام يضيّع الدين، والتشدد المفرط ينفّر الناس منه. وقد قال أحد المفكرين: "من فرط في الحقيقة ضلّ، ومن تعسّف في الدفاع عنها ضلّ أيضًا". ينطبق هذا على الجانبين.

بهذا نختتم المحور المقارن. وفي المحور التالي والأخير، سننظر إلى *التطبيقات المعاصرة* وكيف يمكن أن نستفيد من هذا الإرث النظري في معالجة الانحراف الفكري اليوم في سياق عالمي متغير.

المحور الخامس: التطبيقات المعاصرة ومعالجة الانحراف الفكري في السياقات الحديثة

بعد هذا العرض التاريخي والتحليلي، تتجه الدراسة الآن إلى **الواقع المعاصر** لاستخلاص سُبُل عملية في التعامل مع الانحراف الفكري، مستلهمةً من التجربتين الإسلامية والمسيحية معًا. نحن نعيش اليوم في عالم شديد الترابط (نتيجة **التأثيرات الكونية** كما أسلفنا) مما يجعل التحديات الفكرية مشتركة إلى حد كبير بين مختلف الأمم. سنقسم الحديث هنا إلى قسمين :**أولًا تحديد أبرز مظاهر الانحراف الفكري المعاصر** التي نشهدها، ثم **ثانيًا طرق المعالجة المقترحة** على ضوء ما فهمناه من التراثين.

أولًا: مظاهر الانحراف الفكري في العصر الحديث

1. **التطرف العنيف المؤدلج دينيًا** :وهو ظاهرة برزت أواخر القرن العشرين وبداية الواحد والعشرين بحدة، تمثلت في جماعات تتبنى فكرًا دينيًا متشددًا يميل إلى التكفير والعنف (مثل تنظيم "القاعدة" سابقًا و"داعش" مؤخرًا، وبدرجة ما بعض حركات اليمين المسيحي المتطرف أو الهندوسي... ولكن تركيزنا على الإسلام والمسيحية). هذا التطرف يُعد **انحرافًا فكريًا خطيرًا** عن قيم الدينين؛ ففي الإسلام يخالف نصوص الرحمة والعدل والسماحة، وفي المسيحية يناقض رسالة المحبة والسلام. ومع ذلك يجتذب أتباعًا بسبب شعاراته *الهووية* (أي هوية دينية في عالم مضطرب) واستغلاله مظالم سياسية.
2. **الإلحاد الجديد والموجة اللادينية** :على الطرف الآخر، هناك تنامٍ لخطاب إلحاد أو لادينية يجاهر بعداء الدين ويعتبره سبب المشكلات. في الغرب هذا ظاهر في كتابات أمثال ريتشارد دوكنز وغيره) ما يسمى بتيار "الإلحاد الجديد(New Atheism "، وفي العالم الإسلامي رصدت زيادة في أعداد من يعرّفون أنفسهم لادينيين أو متشككين، خاصة بين الشباب المتأثر بالثقافة

الغربية أو المحبط من تناقضات واقع المسلمين. هذا التيار يعتبر **انحرافًا فكريًا** من منظور ديني لأنه يقطع صلته بالمصدر الإلهي للقيم والمعنى.

3. **النسبية والتفكيك (ما بعد الحداثة)** :وهي ظاهرة فكرية فلسفية ربما لا يتنبه لها الجمهور الواسع، لكنها سائدة في جامعات الغرب، وتتلخص في إنكار الحقيقة المطلقة أو المشتركة، والنظر لكل منظومة فكرية على أنها *بناء نسبي* .هذا يؤدي إلى نوع من *العدمية* أو ضياع المعايير (مثلاً: القول بأنه لا يوجد "صواب" و"خطأ" أخلاقي عام، فكل ثقافة لها حقائقها). هذا الاتجاه يقوّض أسس الدين الذي يقوم على حقائق كبرى ومعايير ثابتة. لذا يعد من أخطر الانحرافات الفكرية النخبوية. بدأت بعض مظاهره تتسلل لبيئاتنا (كالتشكيك في مسلمات دينية بدعوى القراءات الحداثية، أو الدعوة لقراءة الدين كظاهرة نسبية).

4. **تيارات الفكر الإقصائي والكراهية** :سواء مغلفة بالدين أو بالقومية. فمثلاً *الإسلاموفوبيا* في الغرب تصوّر الإسلام عدوًا حضاريًا (وهذا فكر منحرف متطرف)، وأيضًا بعض التيارات عند المسلمين تبث الكراهية لكل ما هو غربي أو لكل الطوائف المخالفة. كذلك عودة العنصرية البيضاء ببعض الدول الغربية (يحصل تزاوج غريب أحيانًا بينها وبين رموز مسيحية). هذه الاتجاهات فكرية الطابع تبرر العداء للآخر، وهي انحراف عن مبدأ الأخوّة الإنسانية في الأديان.

5. **الانحرافات الفكرية الأخلاقية/القيمية** :نعني بها انتشار أفكار تشرّع ما حرمته الأديان والأعراف الطويلة، تحت شعار الحرية الشخصية أو التقدم. مثل الدعوة لإباحة كامل العلاقات خارج الزواج، تغيير التعريفات الأسرية، التطبيع مع المخدرات الخفيفة، شيوع ثقافة الإباحية في الإعلام... إلخ. هذه قد يراها البعض حرية فردية، لكن من منظور إسلامي ومسيحي تقليدي هي *انحراف عن الفطرة وعن القيم الإلهية*، وبالتالي لها جانب فكري لأنها غالبًا مبررة بنظريات (كالمادية أو الحتمية البيولوجية).

ثانيًا: آليات المعالجة المعاصرة المقترحة

انطلاقًا من *الفهم المقارن* الذي عرضناه، نضع هنا **استراتيجيات وتوصيات عملية** لكيفية التصدي للانحراف الفكري (بصوره المذكورة) اليوم. سنحرص أن تكون التوصيات شاملة، وتستفيد من نقاط القوة في المنهجين:

1. **ترسيخ التعليم الديني الوسطي المستنير**:

- *في المناهج الإسلامية* :ينبغي تطوير مناهج التربية الإسلامية في المدارس والمساجد لترسّخ **الفهم الصحيح والوسطي** للدين، المستند إلى نصوص القرآن والسنة وفق مقاصد الشريعة. تعليم الناشئة أسس العقيدة السليمة بطريقة عقلانية محببة، وتبيين خطورة الغلو والتكفير وطرق تحريف النصوص. كذلك إدماج سير العلماء المجددين (كالشاطبي، ابن عاشور، محمد عبده، إلخ) الذين واجهوا الانحرافات بالفكر. التربية الفكرية منذ الصغر هي حصانة ضد الاختراق الفكري المتطرف أو الإلحادي لاحقًا.
- *في المناهج المسيحية* :تفعيل دروس التعليم الكنسي (مدارس الأحد مثلًا) خاصة في المجتمعات الغربية، بحيث لا تكتفي بالتلقين التقليدي بل تواجه الأسئلة العصرية للشباب: كيف نوفّق الإيمان بالعلم، لماذا الأخلاق المطلقة مهمة، الرد على شبهات الملحدين بشكل منطقي. التركيز على رسالة المسيح المتسامحة والمحبة كحصن ضد أي تطرف بإسمه.
- *مشترك* :ربما تبادل الخبرات بين التربويين المسلمين والمسيحيين حول **مناهج تعليم القيم الدينية** مهم. مثلاً، مشروع مشترك لخبراء من الأزهر والفاتيكان لوضع إطار *ثقافة السلام والاعتدال* للأطفال. هذا ليس خيالًا بل يمكن ضمن مبادرات حوار الأديان.

2. **تعزيز الحوار والتفاهم بين أتباع الديانات:**

كثير من الانحرافات الفكرية تنمو في بيئة جهل بالآخر وصناعة صورة شيطانية عنه. لذا فالمعالجات تشمل:

- إقامة **منتديات ومناظرات علمية** بين علماء مسلمين ومسيحيين معتدلين حول القضايا الفكرية المعاصرة (مثلًا: مواجهة الإلحاد، الأخلاق في عالم متغير، نقد التطرف الديني). هذا يحقق هدفين: توحيد الجهود أمام تحديات مشتركة، وتقديم نموذج حضاري أن اختلاف العقيدة لا يعني عداوة فكرية.
- دعم مشاريع *حوار محلي*، كأن يُشرك الشباب من الجانبين في ورش عمل حول مكافحة خطاب الكراهية والتطرف. عندما يعمل الشباب المسلم والمسيحي معًا على مبادرة اجتماعية، تتكسر الصور النمطية ويصبح من الصعب أن ينحرف فكر أحدهم نحو شيطنة الآخر.
- تبادل المناهج والتجارب: مثلاً استفادة دعاة المسلمين من أسلوب الكنيسة في *التعليم بالقدوة والمحبة*، واستفادة الوعاظ المسيحيين من *عمق التأصيل القرآني* الذي يقوم به علماء المسلمين. هذه التبادلات قد تبدو غير مباشرة لكنها تثري طرق معالجة كل طرف لانحرافات أبنائه.

3. **استخدام الإعلام ووسائل الاتصال الحديثة لنشر الفكر الصحيح:**

إذا كانت الأفكار المنحرفة تنتشر اليوم عبر الإنترنت ووسائل التواصل، فإن **المواجهة يجب أن تكون في نفس الساحات.**

- إنتاج برامج ومواد رقمية جذابة) مقاطع فيديو قصيرة، رسومinfo-graphics ، صفحات تفاعلية (تشرح للشباب بطرق بسيطة *حقائق الدين السمح* وتدحض *الشبهات*

الرائجة .مثلًا: مقطع يوضح أن الإسلام يدعو للرحمة لا للقتل مدعومًا بآيات وأحاديث، أو فيديو من قس وشاب مسلم معًا يتحدثان ضد العنف والتعصب.

- تكوين *فرق رصد إلكتروني* تتابع ما يثار من شبهات أو دعايات متطرفة للرد عليها بسرعة. هذه الفرق يمكن أن تكون في مؤسسات الإفتاء أو الجامعات. فمثلاً، حين ينتشر خطاب تكفيري يبرر قتل الأبرياء، يرد عليه عالم مسلم بفيديو توضيحي. وحين ينشر ملحد فكرة أن "الدين سبب الحروب"، يخرج رجل دين (أو حتى عالم اجتماع مسلم ومسيحي معًا) يبيّن بالأرقام والتاريخ بطلان ذلك.
- تشجيع *المدونين والمثقفين* من ذوي التأثير على تناول هذه القضايا، وعدم ترك المجال للمضللين فقط. فالكلمة اليوم سلاح، ومن يملك المنصات قادر على توجيه العقول. لذا لا بد من الاستثمار في "الفكر المستنير الموجه إعلاميًا."

4. **الإصلاح الديني الداخلي المستمر:**

يجب أن تستمر عملية **مراجعة الذات** داخل المؤسسات الدينية لمنع أي تراكمات تقود لانحرافات:

- على الجانب الإسلامي: مواصلة تجديد الخطاب الديني الذي دعا إليه عدد من العلماء. بمعنى تنقية كتب التراث مما علق بها من قراءات خاطئة أو روايات موضوعة استغلها المتطرفون. أيضًا إصلاح نظم الفتوى لمنع الاجتهادات الشاذة غير المؤصَّلة التي تشوش عقول الناس. عندما يرى الشاب المسلم علماءه يصححون بعض الموروثات التي ثبت خطؤها، سيكتسب ثقة بأن الفكر الإسلامي مرن وصحيح وليس جمودًا متحجرًا، فلا يغريه من يأتيه بفكرة "الإسلام الصحيح غير ما تعلمتَه" (كما يفعل متطرف أو ملحد).

- على الجانب المسيحي: استكمال مسيرة الانفتاح التي بدأها الفاتيكان الثاني. مثلاً مزيد من *إشراك العلمانيين (غير رجال الدين) في صنع القرار الكنسي*، ليشعر عموم المؤمنين أنهم جزء من المؤسسة وليسوا مغتربين عنها. مراجعة بعض المواقف المتشددة التي لم يعد لها مسوغ (مثلًا مسألة حرمان المطلقين من المناولة في الكاثوليكية خففت مؤخرًا). هذه الإصلاحات الدائمة تسد ذرائع من يهاجمون الكنيسة بأنها "لا تتطور" أو من قد ينشقون بحثًا عن تجديد بالخارج.
- القاسم المشترك :**المرونة وضخ الدماء الجديدة** في الفكر الديني يحول دون تراكم الجمود (الذي يؤدي إمّا لانفجار تطرف أو لهجران شباب). وهذا ما تعلّمناه تاريخيًا: لما تصلح المؤسسة نفسها، تقل الحاجة لظهور حركة متطرفة تدعي التصحيح من خارجها.

5. **المعالجة الاقتصادية والاجتماعية**:

من المهم الاعتراف أن الانحراف الفكري لا ينشأ في فراغ، بل كثيرًا ما **يتغذى على مظالم اجتماعية أو أزمات نفسية واقتصادية** .فالتطرف الديني مثلاً يجد بيئته الخصبة في مجتمع يعاني الفقر والظلم والجهل، حيث يُصبح العنف "مبررًا" في نظر البعض. والإلحاد كذلك ينتشر في بيئة يغيب عنها العدل أو يشيع فيها النفاق الاجتماعي باسم الدين. لذا من توصيات الدراسة:

- **العدالة الاجتماعية** :على الحكومات والمجتمعات العمل لتقليل الظلم والتهميش. عندما يشعر الشاب أنه ينال حقوقه وفرصه في الحياة بكرامة، يقل ميله للانتقام (الذي قد يُلبَس لبوس التطرف الديني). كذلك سيقل تحميله الدينَ مسؤولية البؤس (وهو أحد دوافع الإلحاد عند البعض).

- **محاربة الفساد باسم الدين** :أحيانًا انحراف فكر الناس يأتي من رؤيتهم لمن يتحدث بالدين فاسدًا في سلوكه، فيكرهون الدين كله. لذا إصلاح الخطاب الديني يجب أن يشمل أيضًا قدوة النزاهة والشفافية من قِبل العلماء والقساوسة.
- **الرعاية النفسية والشبابية** :بعض الانحرافات تروج عند من يعاني اضطرابات نفسية أو فراغا معنويا. توفير مراكز إرشاد ودعم للشباب، اندماج المراكز الدينية مع نشاطات شبابية (رياضة، فنون هادفة) يملأ حياتهم ويمنع وقوعهم فرائس لمن يجندهم ذهنيًا.

6. **التأكيد على القيم المشتركة والدفاع عنها**:

أمام تحديات ما بعد الحداثة والنسبية، من المهم أن يتعاون المؤمنون (مسلمين ومسيحيين وغيرهم) على **رفع راية القيم الإنسانية المشتركة** المستمدة من دينهم: مثل كرامة الإنسان، قدسية الحياة، قيمة الأسرة، أهمية الصدق والأمانة... الخ. إقامة مؤتمرات عالمية أو إصدار بيانات مشتركة حول هذه القيم يخلق جبهة فكرية مضادة لمن يدعو لتفكيكها. مثال: إعلان مشترك من الأزهر والفاتيكان في شأن **رفض الإلحاد المادي كحل لمشاكل الإنسانية،** والتشديد على دور الإيمان في بناء مجتمعات صحية أخلاقيًا. هذه الرسائل لها أثر عندما تُنشر إعلاميًا، إذ تعيد الثقة لدى الجمهور العام أن رجال الدين بمختلف مللهم *متحدون لأجل الخير العام*، وليسوا في صراع عقيم. وبالتالي يصعب على أصحاب الأجندات المنحرفة عزل مجموعة وإغرائها بخطاب الكراهية.

7. **الإجراءات القانونية الذكية**:

يبقى دور الدولة مهمًا. لكن يجب تجنب أخطاء الماضي (القمع الفكري الذي ارتد سلبًا). المطلوب **قوانين توازن بين حرية التعبير وبين منع التحريض والتضليل**:

- سنّ تشريعات تجرّم صراحة *التحريض على العنف والكراهية الدينية*، مع مراقبة لصيقة لمنابر من يثبت ترويجهم لذلك. هذا واجب الحكومات. في نفس الوقت، **احترام حرية النقاش الفكري** :فلا تمنع دولةٌ نقدًا هادئًا للأفكار أو وجود ملحدين مسالمين، لأن القمع الشديد لهم قد يجعلهم أبطالاً أو يزيد قناعتهم. البديل هو الحوار والإقناع.
- دعم مبادرات **"تفكيك الفكر المتطرف** :"بعض الدول العربية أنشأت مراكز فكرية لمكافحة التطرف تقدم دراسات ومشاريع بهذا الخصوص. هذه إيجابية بشرط أن تُشرك علماء شرعيين حقيقيين (لا أن تكون معالجة أمنية فقط).
- في الدول الغربية، الانتباه كذلك لتصاعد *الإسلاموفوبيا* وحركات العداء؛ فسنّ قوانين تجرّم ازدراء الأديان أو المقدسات بشكل سافر يساعد في منع تغذية حلقة التطرف المتبادل (فالتعصب يولّد تعصبًا).

توصيات ختامية مركزة:

- **للمؤسسات الإسلامية** :اعملوا على برنامج شامل لـ**الأمن الفكري** لشباب الأمة، يشارك فيه العلماء والتربويون وعلماء النفس والاجتماع. البرنامج يشمل تنمية مهارات *التفكير النقدي الإيجابي* لدى الطلاب (ليميزوا بأنفسهم الشبهات)، وتدريب الأئمة على التواصل مع الجيل الرقمي، وإنشاء *مراصد فكرية*.
- **للمؤسسات المسيحية الغربية** :كثّفوا جهود **"التجديد الروحي "**لجذب الشباب للكنائس بمعانٍ جديدة. أظهروا انفتاحًا على قضايا العدالة والبيئة والفقراء (وهو ما يقوم به البابا فرنسيس مثلا) لأن هذا يعطي صورة لدين حي ومحب، تقل معه قناعة الشباب بأن الكنيسة "متخلفة" أو لا تمس حياتهم. استمروا أيضًا في الاعتذار عن أخطاء الماضي (كما فعل يوحنا بولس الثاني

حيال محاكم التفتيش والصليبيات) لأن هذا يسحب البساط ممن يستخدمون التاريخ لتشويه الحاضر.

- **للطرفين معًا** :افعلوا كما جاء في حديث النبي ﷺ» *يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله، ينفون عنه تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين* .«أي ليكن علماء كل عصر هم العدول (الثقات) الذين *ينفون تحريف الغالين* (الغلو والتطرف)، *وانتحال المبطلين* (المنافقين أو من يتلبس بلباس الدين لهوى)، *وتأويل الجاهلين* (سوء فهم البسطاء). هذه مهمة مستمرة. بالمثل في المسيحية، ليكن قادة الرأي فيها كالملح الذي يحفظ من الفساد، يصححون الإفراط والتفريط.

ختامًا، يبدو واضحًا أن مواجهة الانحراف الفكري اليوم **ليست مهمة طرف واحد**؛ إنها مسؤولية جماعية تتطلب تكاتف الأسرة، والمدرسة، والمؤسسات الدينية، والحكومات، والإعلام، بل والتعاون بين أتباع الأديان كما أسلفنا. المنهج الإسلامي بمنطلقاته الربانية ومقاصده السامية، والمنهج المسيحي الغربي بقيمه الروحية وتجربته التاريخية، كلاهما يملك *أدوات* مميزة للمساهمة في هذه المهمة. إن **تبادل العبر والتجارب** بينهما سيخلق حراكًا فكريًا إيجابيًا يخدم البشرية جمعاء.

ولعلنا نتذكر مقولة هانز كونغ مرة أخرى" :*هل سنتخلص من سرطان التعصب؟* – "نعم يمكننا ذلك إذا خلصت النيات وتعاون العقلاء من كل دين على اجتثاث جذوره الفكرية عبر العلم والفهم. وكذلك نذكر قول النبي محمد ﷺ» :*الدين النصيحة* – «فنصيحتنا لبعضنا اليوم أن نقف ضد أي انحراف بالتي هي أحسن، حتى يبقى *الدين رحمة للعالمين* لا نقمة، وتبقى *المعتقدات* مصدر هداية ووئام لا صراع وضلال.

الخاتمة

في ختام هذه الدراسة الأكاديمية المقارنة حول **الانحراف الفكري بين الفكر الإسلامي والفكر المسيحي الغربي في ضوء مقاصد الشريعة**، نلخّص أبرز ما توصلنا إليه من نتائج واستنتاجات، ونبرز قيمة هذه الدراسة وآفاق البحث المستقبلية:

- **تأكيد وحدة الظاهرة واختلاف تجلياتها** :اتضح أن الانحراف الفكري كظاهرة *موجودة في كل مجتمع ديني*، تعبّر عن خروج عن جادة الفكر القويم كما يعرّفه ذلك المجتمع. إلا أن التجربة الإسلامية والتجربة المسيحية الغربية قدّم كل منهما **نموذجًا خاصًا** :فالإسلام ضبط الفكرة بميزان الوحي ومقاصده، بينما المسيحية الغربية اتخذت فترة طويلة ميزان الكنيسة والتقليد، ثم واجهت تحدي العقل والحداثة فتكيفت تدريجيًا. ومع ذلك، الجوهر المشترك هو الصراع بين *الحق والزيغ*، *الوسطية والغلو*، *النور والظلمة* في العقول.
- **دور مقاصد الشريعة المحوري** :أثبتت الدراسة أن *مقاصد الشريعة الإسلامية* –وبالأخص حفظ الدين والعقل – تشكّل إطارًا نظريًا وعمليًا فعّالًا في وقاية الفكر الإسلامي من الانحراف أو علاجه. وظهر كيف استخدم العلماء هذا المفهوم لإبطال البدع والتطرف عبر التاريخ، وكيف أنه يمثل منهجًا *وقائيًا* سبق به الفكر الإسلامي غيره. وفي الوقت ذاته، تبيّن أن الفكر المسيحي لديه نظير جزئي لهذا في *مقاصد الشريعة المسيحية (إن صح التعبير)* والمتمثلة في تعاليم المسيح الأساسية (المحبة، الحق، العدل) التي يمكن اعتبارها غايات عليا، إلا أن بلورتها نظريًا لم تكن واضحة كما في الإسلام.
- **المقارنة أوضحت عوامل نجاح وإخفاق** :رأينا أن الإسلام تمكن بقدر كبير من الحفاظ على *استقامة فكرية عامة* رغم تعدد الفرق، بفضل ثوابت واضحة وحركة علمية نشطة. بالمقابل،

شهدت المسيحية الغربية *تصدعات فكرية* كبيرة (انشقاقات، علمنة) بسبب تراكمات تاريخية (كدور محاكم التفتيش مثلاً) وردود فعل الحداثة. هذا يعطي درسًا مهمًا :**العدل والتيسير في الدين حفظ، والتعسف فيه مدمر** .الإسلام حين طبق مقولة "ما جعل عليكم في الدين من حرج" حمى نفوس أتباعه من الثورة على الدين ذاته. أما حيثما تعسفت السلطات الدينية (كما في أوروبا)، جاءت الثورات تخلع كل شيء معها.

- **تشابه التحديات المعاصرة** :رغم اختلاف السياقات، المسلمون والمسيحيون اليوم يواجهون تحديات فكرية متقاربة: التطرف، الإلحاد، التفكك القيمي... وهذا يخلق فرصة للتعاون الفكري . *الانحراف الفكري لم يعد محليًا بل عالمي العدوى* .كما رأينا، الأفكار تنتشر كالنار في الهشيم عبر الإعلام الحديث. لذا، **إما أن يتحالف أهل الاعتدال من كل جانب لكبح جماحها، أو يتركوا فرادى فينهشهم المتطرفون والملحدون واحدًا تلو آخر.**
- **الحلول العملية** :استعرضت الدراسة حزمة من **التوصيات العملية** :إصلاح التعليم، تفعيل الحوار، استخدام الإعلام، الإصلاح الذاتي، معالجة الأسباب الاجتماعية، التشريعات المتوازنة، إلخ. هذه التوصيات قابلة للتنفيذ إذا توافرت الإرادة لدى المعنيين (علماء الدين، صناع القرار، المؤسسات الدولية). نؤكد هنا على خاصّة مهمة :*لا بد من إرادة سياسية وثقافية داعمة* .فمهما بلغ العلماء والدعاة من جهد، إن لم تدعمهم بيئة رسمية ومجتمعية لن يحققوا المدى المطلوب. والعكس صحيح: التوجه الرسمي وحده لا يكفي إن لم يسانده عمل ميداني صادق من المربين والوعاظ.
- **أهمية الدراسة وأصالتها** :تبرز أهمية هذه الدراسة في كونها من الدراسات العربية النادرة – حسب اطلاعنا – التي قامت **بمقارنة معمّقة** بين كيفية تناول الإسلام والمسيحية الغربية لقضية فكرية كهذه. فهي بذلك تقدم إسهامًا في *دراسات الحوار الديني* من زاوية غير تقليدية (زاوية

مقاصدية وفكرية). كما أنها تتفادى التحيز، فلم يكن القصد إثبات "أفضلية" مطلقة لأحد المنهجين بقدر ما كان الهدف الفهم المتبادل والتعلم. أصالة البحث تأتي أيضًا من الدمج الذي حصل: استفدنا من **نصوص قرآنية ونبوية وشروحات علماء مسلمين** جنبا إلى جنب مع **اقتباسات من قديسين ومصلحين مسيحيين**، في سياق واحد. هذا المزج أظهر *صورًا فكرية متقابلة* ربما قلّ أن جمعت بهذا الوضوح في متن واحد.

- **آفاق البحث المستقبلي** :فتح هذا العمل أبوابًا لبحوث أخرى. مثلًا: يمكن التوسع في *دراسة مقارنة بين مفاهيم* محددة كـ "البدعة" في الإسلام و "الهرطقة" في المسيحية ببحث مستقل أعمق تاريخيًا وفقهيًا. أو دراسة "دور المؤسسات التعليمية الدينية (الأزهر والفاتيكان مثلًا) في حفظ الأمن الفكري". كذلك قد يكون من المثمر إجراء دراسات ميدانية (كاستطلاعات رأي) حول تأثير تعاون العلماء المسلمين والمسيحيين على وعي الجمهور تجاه التطرف، لقياس فعالية بعض التوصيات. أيضًا *ترجمة هذه الدراسة* إلى لغات أخرى ستنشر الفائدة وتفتح نقاشًا أوسع.

في النهاية، نأمل أن تُسهم هذه الدراسة ولو بقدر يسير في تعزيز *ثقافة التسامح والفهم العميق* وأن تكون لبنة في بناء جدار فكري متين يصدّ عواصف الانحراف التي تهبّ على مجتمعاتنا. فالحفاظ على **سلامة الفكر** هو حفاظ على *إنسانية الإنسان* نفسها، إذ الفكر السليم مقدمة للسلوك السليم وللعمران. نسأل الله أن يجعل أعمالنا خالصة لوجهه، وأن يوحّد قلوب المؤمنين على الخير، وأن يهدي الضالّين إلى سواء السبيل.

المراجع

1. القرآن الكريم، النص العربي برواية حفص عن عاصم. (تم الاستشهاد بآيات متعددة مثل الأنعام 153، آل عمران 7، النساء 171، وغيرها في مواضعها من الدراسة).
2. **الأحاديث النبوية والشروح** :تم تخريج الأحاديث الواردة ضمن المتن إلى مصادرها: حديث العرباض (أبو داود 4607، الترمذي 2676)، حديث الغلو (ابن ماجه 3029)، حديث افتراق الأمة (رواه أبو داود والترمذي وغيرهما بسند فيه كلام)، أحاديث الخوارج (صحيح مسلم كتاب الزكاة حديث 1064 وغيره). كما تم الرجوع إلى **شرح النووي على مسلم** و**كتاب الاعتصام للشاطبي** لفهم هذه الأحاديث.
3. **الشاطبي، إبراهيم بن موسى اللخمي الغرناطي (ت 790هـ)** *:الاعتصام* .تحقيق مشهور حسن سلمان، دار ابن عفان، السعودية، 1997م. (تم الاستناد إليه في تعريف البدعة والتحذير منها، وفي تأصيل أهمية اتباع مقاصد الشريعة).
4. **الشاطبي** *:الموافقات في أصول الشريعة* .ضبطه وعلّق عليه أبو عبيدة مشهور حسن، دار ابن عفان، 1997. (استفادت الدراسة من نظرية المقاصد كما بلورها الشاطبي في هذا الكتاب).
5. **ابن تيمية، أحمد (ت 728هـ)** *:درء تعارض العقل والنقل* .تحقيق محمد رشاد سالم، جامعة الإمام محمد بن سعود، 1981م. (خصوصًا مقولته حول توافق صريح المعقول مع صحيح المنقول). أيضًا كتابه *منهاج السنة النبوية* تمت الإشارة لبعض أفكاره حول مواجهة البدع والرافضة.

6. **ابن القيم الجوزية (ت 751هـ)** *إعلام الموقعين عن رب العالمين*. تحقيق طه عبد الرؤوف سعد، دار الجيل، بيروت، 1973م. (استخدامه في الاستدلال على تغير الفتوى بتغير الزمان والمكان، وتحليله لفتنة الشبهات والشهوات).

7. **الغزالي، أبو حامد (ت 505هـ)** *المنقذ من الضلال*. عدة طبعات، استخدمنا طبعة دار الشروق 1994م. (للاستئناس بسيرة بحث الغزالي عن الحق وتفنيده للفلاسفة والباطنية). أيضًا *فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة* للغزالي (ضمن مجموعة رسائله) فيما يتعلق بحد التكفير.

8. **الشهرستاني، محمد (ت 548هـ)** *الملل والنحل*. تحقيق عبد العزيز الوكيل، دار المعرفة، بيروت. (كمصدر في مراجعة أدبيات الفرق).

9. **Augustine, Saint (أوغسطين)**: تمت الإشارة إلى أفكاره من مصادر ثانوية منها: كتاب *اعترافات القديس أوغسطينوس* (ترجمة خليل رامز سركيس، دار المشرق، بيروت، 1961)، *مدينة الله* (بالإنجليزية، ترجمة ماركوس دودز). كما استشهدنا *City of God* وكذلك كتاب بمقولته حول شكرنا للهراطقة الواردة في كتابات له ضد البدع (نقلها موقع القديس تكلا).

10. **Thomas Aquinas (توما الأكويني)**: المرجع الأساسي *Summa Theologica* II-II, Question 11 (الخاص بالهرطقة). تمت الاستعانة بترجمات إنجليزية لهذا القسم. كذلك كتاب *God and the World* ترجمة (إن وجد) للأقوال المنسوبة إليه. الموقع **ويكي الاقتباس بالعربية** ساعد في اقتباس قول منسوب للأكويني.

11. **Martin Luther (مارتن لوثر)**: مصادر سيرته وأقواله مثل كتاب *Here I Stand* (هنا أقف) لج. بوهل، وخطابه في دايت ورمز 1521م. كما استفدنا من مقال عربي عن تأثير حركة لوثر على الفكر الإسلامي (مقارنة مالك بن نبي بين الإصلاحين).

12. **René Descartes (رينيه ديكارت)**: *مقال عن المنهج*، ترجمة عادل زعيتر، لجنة التأليف والترجمة، القاهرة 1953م. (للإشارة لمنهجه العقلي).

13. **Paul Tillich (بول تيليش)**: كتابه *Dynamics of Faith* (1957) ومقالات عنه. تم الرجوع لمقال عربي في مجلة الاستغراب واقتباس قوله عن تاريخ الدين صراع مع الهموم المطلقة الزائفة.

14. **Hans Küng (هانز كونغ)**: كتاباته مثل *On Being a Christian* (1974)، وكذلك *الإسلام: تاريخ، حاضر، مستقبل* ترجمة عرب خليل (2007) حيث امتدح الإسلام. واستخدمنا مقابلاته وتصريحاته كما في صحيفة الشرق الأوسط حيث اقتبسنا قوله عن التعصب الديني. أيضًا **موقع ويكي الاقتباس العربي** زوّدنا ببعض أقواله الشهيرة (كالدعاء للخلاص من التعصب).

15. **وثائق كنسية حديثة** *قرار المجمع الفاتيكاني الثاني في الحرية الدينية (1965)* والذي أكد "لا إكراه في الدين". *الإرشاد الرسولي العقل والإيمان* Fides et Ratio للبابا يوحنا بولس الثاني – (1998) استعين به لإظهار الموقف الكاثوليكي الحديث من العلاقة بين العقل والوحي.

16. **القرآن والفكر المعاصر**: مقالات أكاديمية مثل "الأمن الفكري في ضوء مقاصد الشريعة" للدكتور صالح بن عبدالرحمن الحصين (مجلة البحوث الإسلامية 2010 مثلاً)، ومقال "الغلو في فهم مقاصد الشريعة وأثره في الانحراف الفكري" في مجلة رواء.

17. **القرضاوي، يوسف**: *الصحوة الإسلامية بين الجمود والتطرف*. طبعات كثيرة (1982م تقريبًا)، دار الصحوة. استخدمناه في توصيف وسطية الإسلام ونقد الغلو.

18. **بن عاشور، الطاهر**: *مقاصد الشريعة الإسلامية*. تحقيق محمد الطاهر الميساوي، وزارة الأوقاف قطر، 2004. (للإشارة إلى آرائه حول المقاصد).

19. **مراجع تاريخية غربية**: كتاب *تاريخ هرطقات الكنيسة* لجون ماكفيرسون، موسوعة تاريخ الكنيسة، وكذلك موسوعة الهرطقات (Encyclopedia of Heresies) للاطلاع على أمثلة كالدوناتية والبيلاجية.

20. **مواقع إلكترونية موثوقة**: موقع **Saint Takla** القبطي لأقوال الآباء (أوغسطين وغيره)؛ موقع **IslamStory** الراغب السرجاني لقصة هانز كونغ؛ موقع **Sapience Institute** (انتقاد تصوير الأكويني للإسلام) وذلك كمثال على الحوار النقدي بين الأديان؛ موقع **إضاءات ida2at** لمقال عن بول تيليش؛ موقع **السبيل al-sabeel.net** لمقال عن القرضاوي ومواجهة التطرف؛ صحيفة **الشرق الأوسط** لحوار هانز كونغ.

21. **المراجع الأجنبية العامة**:

- *Armstrong, Karen*. **The Battle for God** (2000). (تناول صعود الأصوليات في الإسلام والمسيحية واليهودية في العصر الحديث).
- *Esposito, John L. (ed.).* **Voices of Resurgent Islam** (1983). (يضم مقالات حول الصحوة الإسلامية ورد فعلها).
- *Tillich, Paul.* **The Shaking of the Foundations** (1948). (بعض عظاته المتعلقة بالإيمان والشك).
- *Schmidt, Alvin J.* **How Christianity Changed the World** (2004). (به فصل عن محاربة الخرافات والعهود المظلمة).

- *Auda, Jasser.* **Maqasid al-Shariah as Philosophy of Islamic Law** (2008). (استفدنا من فكرته أن المقاصد إطار تجديدي).

هذه المراجع وغيرها شكلت الإطار المعرفي لهذه الدراسة. وبطبيعة الحال، تم دمج المعلومات المستقاة منها